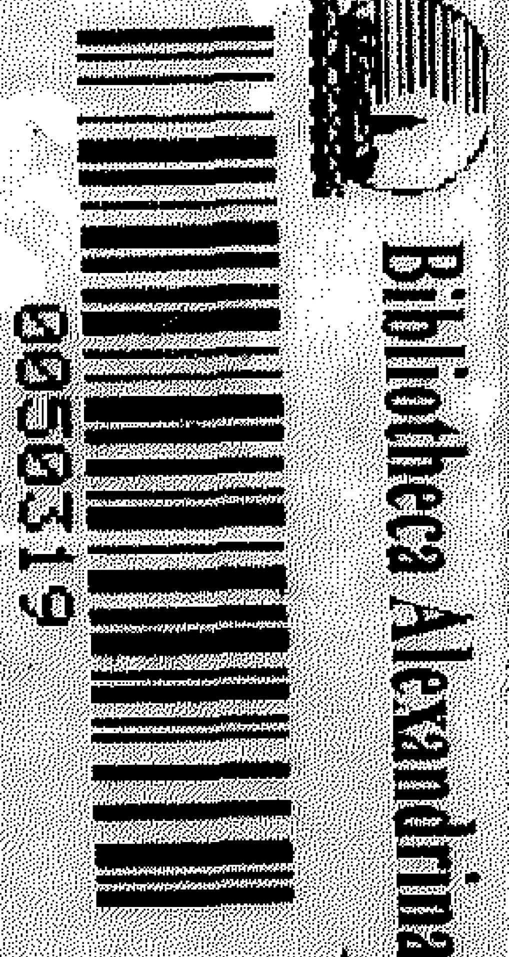
قدري قلعجي

(٢)

ألف ليلة وليلة

السندباد البحري





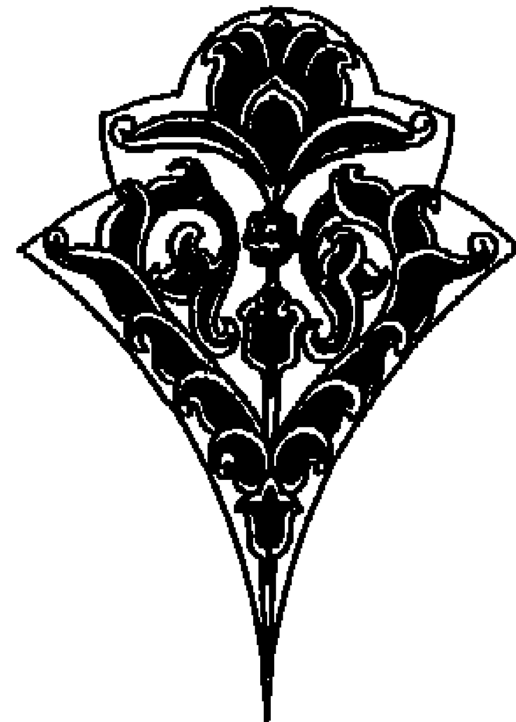


قدري قلعجي

ألف ليلة وليلة

السندباد البحري

(٢)



شركة المطبوعات



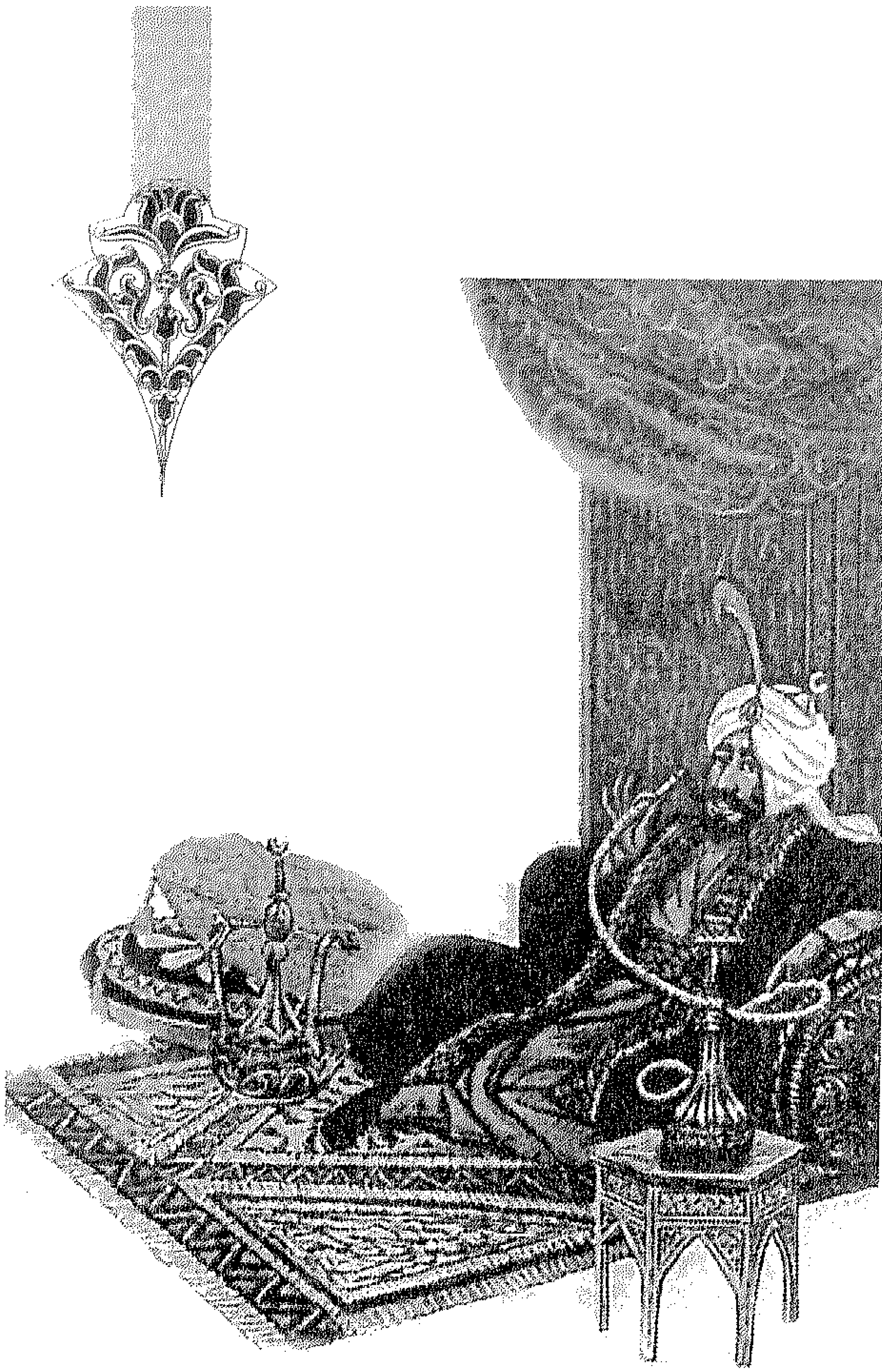
للتوزيع والنشر

بناية الوهاد ـ شارع جان ـ دارك
ص.ب. ٨٣٧٥
بيروت ـ لبنان

هاتف : ٢٤٤٢٣٦ ـ ٢٤٥٤٦٠ / ٢ ـ ٣٥٠٧٢١
فاكس: ٥٢٢١٠٧ ـ ٩ ـ ٣٥٧ / ٩٦١١ ـ ٦٠٢٠٢٩
تلكس: ٢٢٦٦١

الطبعة الاولى ١٩٩٥

تصميم الغلاف : عباس مكي



السندباد

كانت ليلة ليلاء، مظلمة الجلباب، قاتمة النواحي. وكانت ذبالة المصباح تتراقص متطاولة متقاصرة رغم ما يحيط بها من دروع زجاجية، ورغم ان النوافذ محكمة الايصاد، لأن روح العاصفة كانت تعرف كيف تتسلل من الخصاص الضيقة، وتدع قرنها عالقاً برأس الذبالة لتتطاول على اهتزازاته وتتقاصر ثلاثة ظلال تكاد تكون متلاصقة لثلاثة أشخاص ملأوا العالم وشغلوا الناس بدنيا الفنون والآداب في شرق الارض ومغاربها، حتى غدوا على كل لسان، وحديث كل مجلس. شهريار الملك الناقم على الحياة من خلال نقمته على المرأة، وزوجه الحكيمة الداهية شهرزاد التي تعرف كيف تخاتل فيه المنية، ذائدة عن حياتها مدافعة عن بنات جنسها، تمدها بكفاحها دنيازاد الأخت الرؤوم، ذات القلب الذهبي الحنون.

وكان الملك شهريار هذه الليلة مريد

الوجه، مقطب الأسارير، فيه عبوس وجهامة... وكان الخوف يداخل نفس الأخت الطيبة دنيازاد، فيخفق قلبها بين جوانحه بوجيب متسارع الضربات مضطرب الخفقات.. ولم يكن في تلك النفوس الثلاثة هادئ مطمئن غير شهرزاد الحكيمة التي ظلت محتفظة برباطة جأشها وهدوء اعصابها وكامل اتزانها..

وبددت الملكة الفاتنة سحب الصمت بابتسامة ارتمست على شفتيها ذكية أخاذة ناعمة فيها غلبة الضعف الذي يعرف كيف يصرع القوة.. ثم قالت:

ـ هذه ليلة عاصفة... والعواصف أبداً محك النفوس، قويها وضعيفها، صامدها وخائرها، وملكي العزيز هو أبداً رمز القوة والغلبة والعظمة.

وانفرجت اسارير شهريار قليلاً، وأخذ عبوسه يتحول شيئا فشيئاً الى انشراح وسرور، وتحرك في مكانه قليلاً ثم نظر نظرة ذات مغزى الى دنيازاد التي عاد الامن يطرد خوف نفسها، والهدوء يبعد اضطراب خاطرها، فأقبلت على اختها شهرزاد مستعينة:



ـ والليلة.. ما هي قصتك لنا يا أختي الكريمة؟

ـ قصة الرجل الأعصار ومتحدي الأخطار يا حبة قلبي..



حمال بغداد

وهنا هش الملك شهريار وانفرجت اساريره، مبتسماً ابتسامة عريضة وهو يقول:

ـ قصة فيها شيء من واقع هذه الليلة ايتها المرأة الحكيمة.

ـ قصة اذا سمعها مولاي الملك رأى هذه الليلة عروس النهار!

ـ اذن علي بها... عجلي... عجلي...

ـ وهل لي من امنية سوى ارضاء مولاي الملك.. وما على جلالته الا ان يتصور نفسه الآن في بغداد، بلد المنصور وعاصمة هارون الرشيد العظيم، قبلة الدنيا ورائعة الكون علماً وفناً وادباً...

ولكن لا يخفى على مولاي الرفيع القدر السامي المقام، ان كل مدنية لا بد ان يكون لها اكواخها كما لها قصورها، ولا مناص من ان يضطرب فيها الفقراء كما ينعم الاغنياء، ويعيش فيها المعدمون بجانب المجدودين، والاشقياء في ظل السعداء...

وكان في عداد البؤساء ذوي المتربة والفاقة والكد والشقاء، انسان قلما رآه

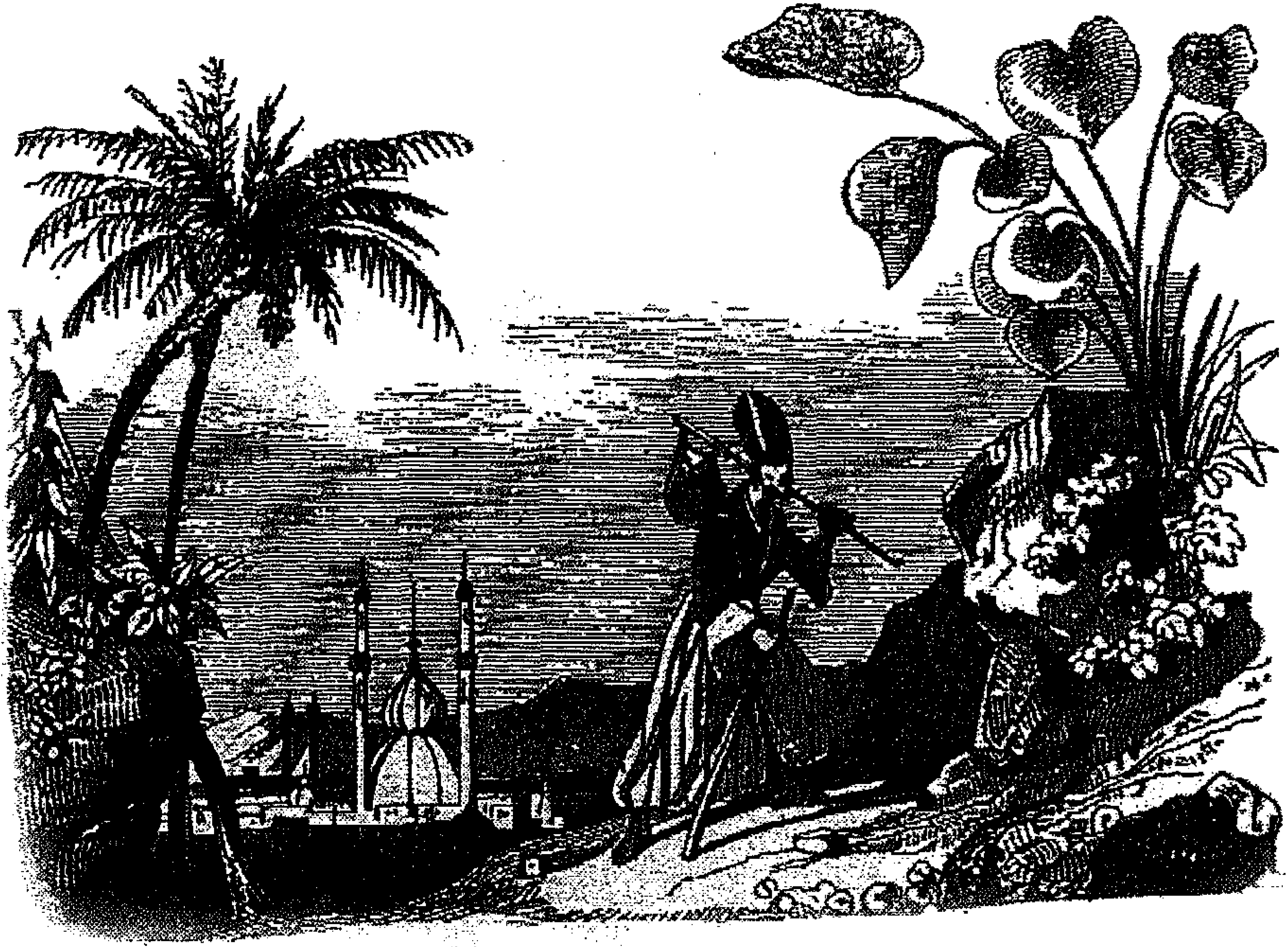
الرائي إلا منطوي الظهر، يسير الهوينا تحت حمل ثقيل او عبء جسيم. إن سار حاذر اكثر ما يحاذر معرفة مواطئ قدميه لئلا يقع في حفرة او يتعثر هاوياً على الارض تحت اكداس ما يحمل من بضاعة او متاع... واذا كان يوماً خفيف الظهر لا يستقبل بوجهه الارض، فهو يمشي مائلاً ذات اليمين او ذات اليسار حسب ما يحمل في هذه اليد او تلك... لقد كان حمالاً... ولقبه «السندباد»...

وفي ذات يوم من ايام الصيف القائظة، والسماء تكاد ان تكون قبة نحاسية محماة تنصب منها حرارة لاهبة غاضبة... والارض سكون وجمود، لا حركة او نأمة، او خطور نسمة من ريح، او اهتزاز عود شجرة... وكل ما في المدينة سكينة مطبقة تلف نائي اطرافها.. ولم يكن هناك من صوت إلا اذا دلف المرء من دجلة التي تجري مياهها سريعاً لتتلاشى في فم البحر...

وإذا ما مدّ المرء البصر باحثاً في جنبات المدينة الخالدة، رأى في احد شوارعها القريبة من مركز القلب، رجلاً يجر خطاه تحت وطأة حمل يوشك ان ينوء به، لا يقدم رجلاً واحدة الا وتفصد جبينه بلآلئ ولآلئ تنعقد حول الاسارير وفي تضاعيف الغضون، تكاد تكون عقداً لا سلك له، واسطته في ملتقى تقطيب حاجبيه ونهايتاه في فوديه..

وتقدم الرجل بطيئاً يحاذر ألا يقع، ويسعى جهده ان يتوازن الحمل فوق ظهره، يكثر من ذكر الله والاستعانة برب الناس مما يجول في خاطره ويوسوس في صدره... غير ان الكلمات هيهات ان يتردد بها لسانه من غير تلجلج او توقف، لاضطراب انفاسه وتردد زفراته، فاذا ما سمعه سامع لم يصافح اذنيه غير مقاطع من حروف ومخارج اصوات فيها حشرجة واضطراب وانبهار انفاس.

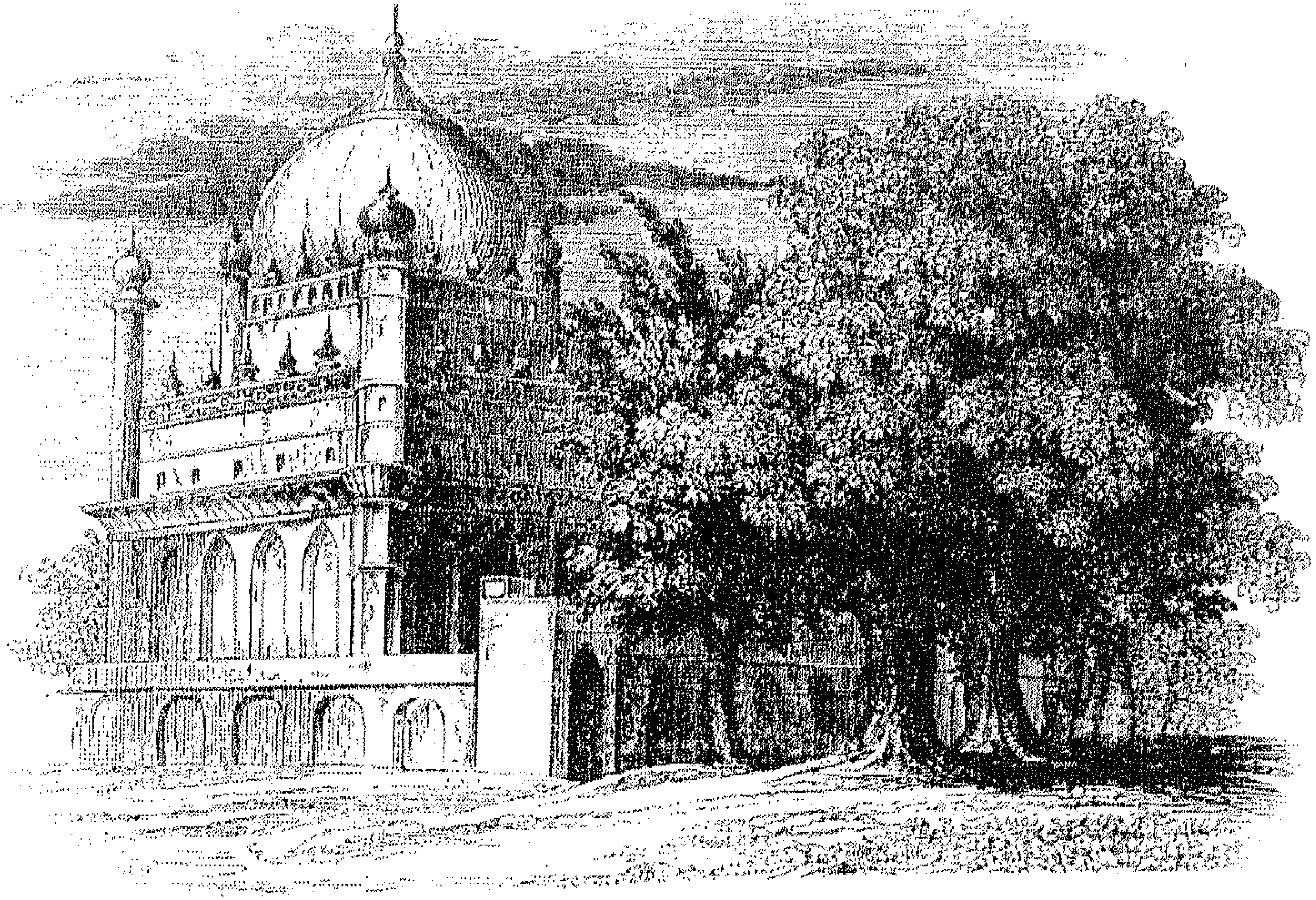
وقطع الرجل شارعاً فرعياً متقدماً من الشارع الرئيسي الذي يشمخر على جانبيه القصر تلو القصر، من كل شامخ يندي جبهته قطر السحاب، يغازل النجم ويسامر البدر، ولو جرى في ثناياه شيء من العاطفة لما عرف الا السرور والحبور، واللهو والمرح، والسعادة والغبطة والنظر بكبرياء ترفعاً عن صغائر الاشياء.. وهل يمكن ان يكون شعور المرمر الا غير شعور الطين!...



سندباد...و سندباد

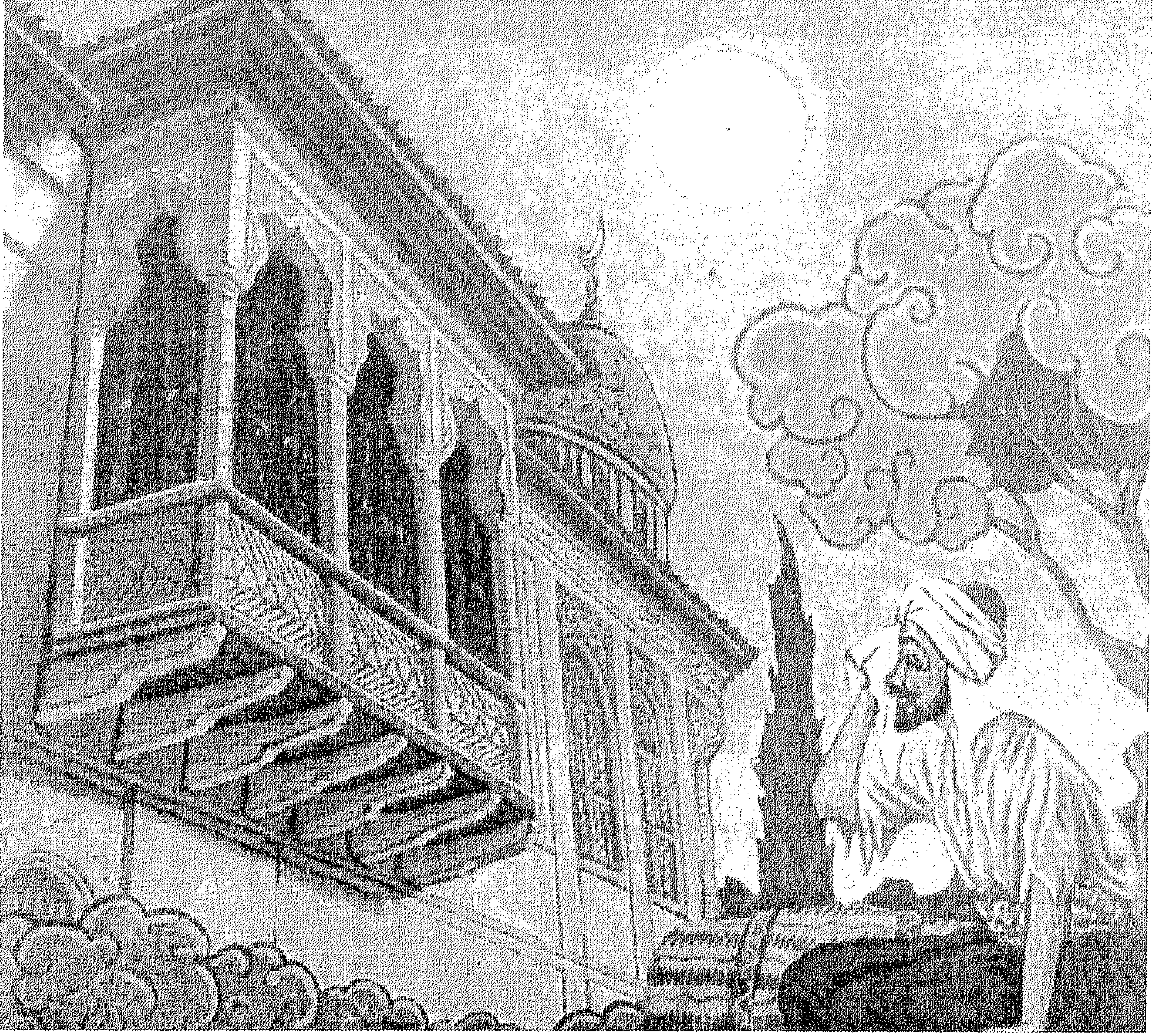
وفيما كان السندباد الحمال يهم أن يرفع رجلاً ليتقدم خطوة، نفحته في ذلك الحر اللاهب، والقيظ الخانق، نسمة باردة عليلة كم ود المسكين ان يحتسبها في صدره، ويطوي عليها ضلوعه، فتنفس باريتاح رغم ما ينوء بحمله ويثقل عاتقه، وعادت النسمة بهدوء للهبوب وعاود الرجل استنشاقها بعمق..

وحاول الشقي التقدم من محجته لكنه شعر بقدميه تتسمران في مكانه تغالبه رغبة ملحة بعدم مزايلة هذا المكان.. ومرت النسمة الباردة ملامسة لآلئ وجهه للمرة الثالثة، فأحس بنشوة تعمر فؤاده وتمتلك مشاعره، وشعر بحالة من الرضا والراحة النفسية، ولم يستطع الا ان يستجيب لنداء اعماقه، فباعد ما بين رجليه، أخذة كل رجل بالانطواء قليلا قليلاً، والرجل يتقاصر والحمل يدنو من الارض حتى لامس أخيراً حافة الرصيف مستريحاً على اليابسة، واخذ البائس يحل الحبل عن صدره ليتنفس ملء رئتيه...



ولما تحرر السندباد من حمله، رفع بصره الى السماء ثم ادار طرفه حائراً فيما حوله... وإذا به امام صرح ممرد، يستقر بجدرانه اجود ضروب المرمر المعّرق والمشجر والمجزّع، من كل لبنة ولو مسها ازميل النحات لتشامخت مباهية برأس افروديت... وامام القصر حديقة تباهي زهر النجوم ببديع زهورها ورائع ورودها، يزيدها جمالاً تلك الدواليب الصغيرة المرتفعة كل منها على عمود فضي، والتي كلما ازدادت حركة دورانها ازداد رذاذ الماء البارد تنثره حواليها، مخففة من اوار الهاجرة، معطرة الجو بعطر فاغم، لأن رب القصر أبى الا ان يكون رشاش ماء دواليبه ممزوجاً بماء الورد وفاخر العطور...

وتنفس سندباد الحمال عميقاً وهو يلعق عن شاربيه كل ذرة ماء تتساقط عليها. وشخص طرفه حائراً بتلك الاحجار المرمرية الرائعة، وزادت تلك النشوة حين رأى الى احدى درفتي نافذة عليا تشرع مفتوحة، ويطل منها وجه لو



رآه بدر السماء لانتقب خجلاً منه، وتمتد يد رخصة مرنانة لتفتح الدرفة الثانية... ورافق فتح النافذة تدفق شلال عابق من زكي العطور وعبق العنبر... ولازم تدفق هذا التيار غير المنظور، تيار آخر تتعاشق فيه الالحان والانغام، بجوقة موسيقية ما فيها وتر إلا وهو سر حنجرة لبلبل او كنار او كروان... ثم سرى بين هذين التيارين تيار ثالث كان أثره في سندباد الحمال أقوى من اي اثر آخر... انه رائحة الشواء التي حركت كوامن الرجل الجائع المرهق... وتلا كل ذلك جلجلة صاخبة لقهقهات غطت الانغام والالحان، تميز الرجل الفقير خلالها اصواتاً نسائية فيها كل معاني الاغراء والمرح والطرب... فازداد فضول الرجل واستيقظت اشواقه ورغباته...

ولما كان المسكين قليل المرور بهذا الشارع، وإن مر به كان نظره مسمراً الى موطئ قدميه، عزم على ان يتعرف الى رب هذا المنزل السعيد... ولبث هينهة جامداًفي مكانه ثم تقدم بقدم مترددة حائرة من خادم يخطر بأبهى زي واجمل هندام وسأله بشيء من الارتباك:

ـ بربك ايها الاخ هلا قلت لي لمن هذا الصرح الممرد؟!

ـ من أي البلاد حضرة السائل الكريم؟

ـ من بغداد يا سيدي أبنا عن أب... وأشاح الخادم بوجهه عن الحمال استعلاء، ثم عاد ورمقه بنظرة ازدراء وقال:

ـ تقول انك من بغداد ولا تعرف بيت سندباد؟

ـ بيت سندباد؟...

ـ نعم.. هذا بيت سندباد!..

ورفع الرجل رأسه الى السماء قائلاً:

«سبحانك اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء... بسطت الارض ورفعت السماء... لكن رب ولا اعتراض على حكمك لماذا آكون انا سندباد الحمال البائس المنكود الطالع السيء الحظ، أصل بياض النهار بسواد الليل بالعناء المتواصل والكد المرهق، ومع ذلك لا اكاد وعائلتي الشقية نتبلغ بخبز الشعير، بينما يغرق سندباد آخر في بحر من الملذات، ومحيط من الممتعات، بحياة كلها نشوة ومتعة ومسرات، له اكل الشواء ولي رائحة الشواء؟... ترى ماذا قدم هذا الانسان حتى استحق ما استحقه من هذه الحياة المرفهة الناعمة، وماذا اجترحت انا من سيئات حتى استأهلت كل تلك الشقاوة... ومع ذلك هو سندباد وأنا ايضاً سندباد!...»

دعوة الى القصر

ودمعت عينا سندباد الحمال، واخذ يردد في حزن و أسى:

فكم من شقي بلا راحة
ينعم في خير فيء وظل
واصبحت من تعب زائد
وأمري عجيب وقد زاد حملي
وغيري سعيد بلا شقوة

وما حمل الدهر يوماً كحملي

ينعم في عيشه دائماً

ببسط وعز وشرب وأكل

ولست اقول عليك افتراء

فأنت حكيم حكمت بعدل

واستيقظ الرجل مبهوتاً من انخطافه الروحي على قهقهة قرعت في اذنيه قرع المطارق، فاستدار على عقبيه يسحب نفسه سحباً متقدماً نحو حمله الثقيل، ولكن ما ان اقتعد مسنداً ظهره الى حمله وهو يشد الحبل الى صدره استعدادا للنهوض، حتى خرج من باب القصر شاب وسيم وخف نحو الحمال وأخذ بيمينه قائلاً له:

ـ هلم ايها الرجل، إن سيدي سندباد يدعوك اليه.

وعلى الرغم من ان الرجل كان لطيفاً جداً مع الحمال، فقد حاول هذا الامتناع عن قبول الدعوة، منتحلاً شتى الاعذار، مؤكداً انه لا يستطيع مغادرة حمله، ولكن هل لرجل في مثل حال سندباد الحمال ارادة، او هل يستطيع مقاومة ومعاندة خادم سندباد رب القصر الشاهق الباذخ؟

وهكذا وجد نفسه بعد قليل من إلحاح الخادم الأنيق الثياب الحسن الهندام، أطوع له من خاتمه، يمشي وراءه مضطرب البال مشوش الخاطر على ما فرط منه من كلمات وعبارات.. ومضى في سبيله داخلاً القصر، عبر الأروقة، يقطع الردهات الكبيرة واحدة إثر واحدة، ورأسه يكاد يتدحرج بين قدميه من ذله وهوانه.. حتى إذا بلغ الخادم الأيوان الكبير ألفى سندباد الحمال نفسه أمام رهط من الرجال والنساء، متحلقين حول مائدة عامرة بأطايب الطعام وأشهى الفواكه، وكان يتصدر المائدة رجل فيه هيبة ووقار، ذو وجه صارم وذقن مدببة تدل على الحزم، يخالط سواد شعر فوديه بياض هو بعض أثار رغوة التجارب التي مرت بحياته، في انبساط وجهه شيء من العنف، وفي لين كلماته ضرب من القسوة، قوي بنيان الجسم، نافر عضلتي الذراعين، يأكل متباطئاً ويشرب مستمرئاً، يحفل الخدم لأدنى اشارة منه، ويهب العبيد لأول بادرة تصدر عنه.. مما لم يدع أي مجال للشك في نفس سندباد الحمال انه امام سميه الثري العظيم..

وزايلت الحمال ارادته فكاد يقع



ارضاً متخاذلا من اضطرابه، وسلم على القوم تسليم الواجف الخائف، تتعثر الكلمات على لسانه تعثراً مشفقاً، ولم يثب اليه بعض رشده الا عندما أفسح له رب القصر في المائدة وطلب منه ان يتقدم الى الطعام يشاركه وليمته، وان يجلس الى جانبه.

ثمار الجهد والكفاح

وجلس سندباد الحمال الى المائدة، لكنه ما زال خجلاً مضطرباً، رغم الكلمات اللينة والعبارات الترحيبية التي أمطره بها رب المنزل الذي اقبل على ضيفه يلاطفه ويتودد اليه هابطاً اليه من رفيع منزلته، حتى اذا استرد الضيف المدعو على غير ارادته، بعض انفاسه المبهورة، غمس المضيف يده في وعاء كبير تكدست به اكوام الفراريج المقلية والمشوية، وحمل فروجاً محشياً بالارز والصنوبر وقدمه

الى صحن الضيف وهو يقول له:

- تفضل... تفضل ضيفنا الكريم!

وفعل أوار الجوع فعله الايجابي في نفس الضيف، فتخلى عن حيائه وتردده، واقبل على الفروج يلتهمه التهاماً، وقامت على خدمته جارية حسناء تتأود بمشيتها وتتعطف، فمالبث حتى تحلل شيئاً فشيئاً من خجله، واقبل يحدث جلساءه بكل نادرة طريفة ونكتة ظريفة.

ولما عاد للنفوس اطمئنانها وللارواح سكينتها، بعد ان امتلأت البطون بلذيذ الطعام، اقبل السندباد المضيف، على ضيفه محتفياً به ويقول:

- أهلاً بك من أخ كريم.. لقد رفعت عقيرتك تحت نوافذ قصري بالكلام والدعاء فحركت في نفسي كوامن وكوامن.. ما اسمك ايها الاخ الكريم؟

- سندباد يا سيدي.. سندباد الحمال...

- انه لمن دواعي غبطتي وسروري ان يكون أسمك نظير اسمي، وان تكون حكيماً بطرح الاسئلة المحرجة على هذا الكون، ويا للحياة من استاذة ماهرة تلقن عائشيها الدروس تلو الدروس، حتى دون ان يمروا بمدرسة فيها... اما أعدت على سمعي أيها الاخ خطابك الذي حرك في نفسي ذكريات وذكريات!..

- اعذرني يا سيدي فان ما نطقت به كان من وحي الالم والتعب... وكل ما أرجوه ان تعذرني عما بدر مني من لغو الحديث...

- لا تثريب عليك ايها الاخ، ولا يتبادر الى ذهنك اني مسيء الظن بك او غاضب عليك، وكل ما أبغيه ان أصحح بعض مواقفك الخاطئة...

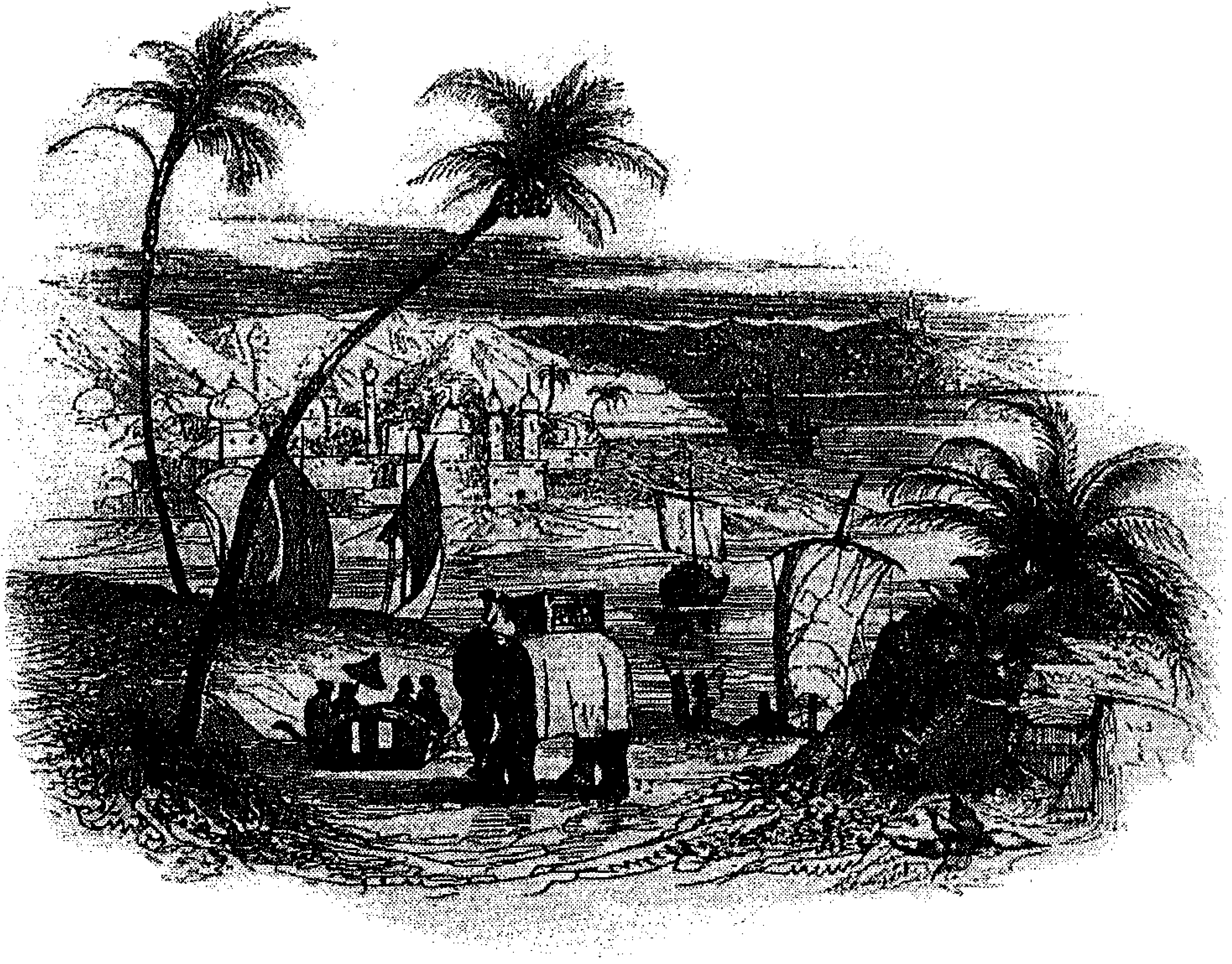
- اذا كان لا بد فاني ممتثل امرك منفذ رغبتك...

وانشد سندباد الحمال الأبيات التي جرى بها لسانه تحت شرفات القصر حتى وصل الى قوله:

وكل الخلائق من نطفة

انا مثل هذا وهذا كمثلي..

فقال المضيف: صحيح انا مثلك يا سميي سندباد... لكن ما سوّدني ليس الحظ وحده، كما لم يذلّك سوء الطالع فقط، واني لأكرر على مسمعيك ما رددته



تحت النافذة من آية قرآنية: «سبحانك اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير...» لكن أما قال الله كذلك: «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله...» ألم يقل أيضاً: «وليس للانسان إلا ما سعى» وهل غرب عن بالك قوله تعالى: «فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض..».

ـ صحيح ذلك يا سيدي، وما تلفظت به ليس سوى ترجمان الالم المعتمل في نفسي...

ـ وهل بحثت عن عمل آخر... وهل سحت في الارض يا سندباد؟

ـ والله اني لا اتقن عملاً آخر، ولا اعرف الا بعض شوارع بغداد!

ـ اذن فاعلم انني لم اجمع تلك الثروة الطائلة، ولم انزل هذا القصر، ولم انعم بحلاوة الحياة، الا بعد ان كابدت الكثير

والكثير من الجهد والجد، والنشاط والكفاح، والشقاء والالم، وبعد ان أعملت فكري، وارهقت جسمي، فكان التعب جسر راحتي وحجر الزاوية لرفاهيتي، وان كنت استروح الآن نسمات النعيم فلأنني اكتويت بلظى الجحيم، ولا استمرئ الآن غير ثمرات جهد سبق وعمل سلف، ورحلة كم رافقتها اهوال وخامرتها متاعب ومازجها عناء... واعلم ان سميّك سندباد لم يقف تحت شجرة الحياة يتأمل ثمارها فتساقطت بين يديه حلوة شهية، وانما جال القفار، وغامر فوق متون البحار، فسعد بشقاوة العمل، واستراح بجهد الجد، جاع فلم يشك، وعطش فلم يبك، ومشى حافياً فلم تند عن صدره كلمة الآه، وغامر وخاطر وتشرد حتى جمع كل تلك الثروة، واستراح بظل هذا النعيم!.. ولقد كانت له رحلات سبع شرّق فيها حتى لم يبق من شرق وغرب خلالها، حتى لم يعد هناك من غرّب، فجاب اقطار المعمورة من طرفيها، تاركاً في كل بقعة من بقاع البسيطة اثراً او خبراً..

هنا التفت رب القصر الى ضيوفه قائلاً:

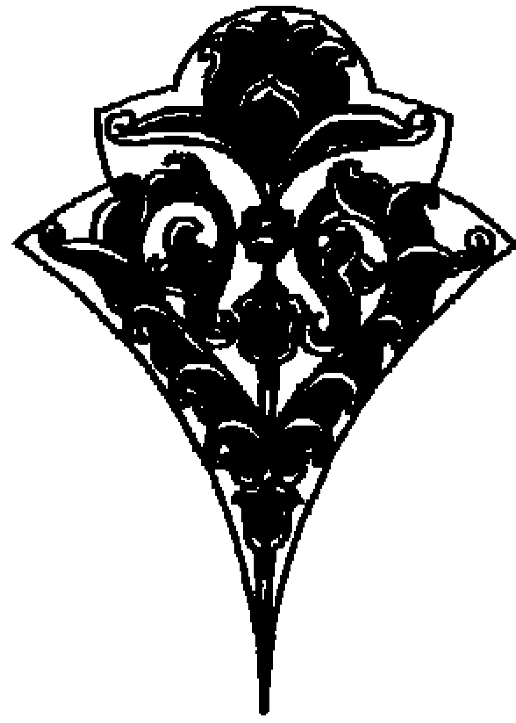
ـ هل تريدون ان تعرفوا كيف كان سندباد، وكيف اصبح أحد سادات بغداد؟...

ـ تلك أغلى الامنيات...

ـ اذن آتوني بحمل سميي من الشارع حذر سرقته، لأنني من اجله محدثكم، واليه متوجه بخطابي اليكم...

ـ أمراً وطاعة...

ـ وهاكم يا اخواني تفاصيل رحلاتي السبع أقصها لا على سبيل الفخار، وانما للذكرى والاعتبار...





الجزيرة السابحة

لعل من المفيد ان تعلموا ايها الاخوان والخلان، وانت يا سميّي سندباد موقظ ذكرياتي من عميق الرقاد، انني ولدت في بيت جاه ومال وعز ورفعة، بسطة في الرزق وسمواً في المجتمع، وكان والدي يشار اليه بالبنان أنىّ حل وحيثما ارتحل، أتقلب على سرر النعيم واتمتع بملاذ العيش، لا أعرف من الحياة الا جانبها الوضاء من فتنة ولألاء. ووالدي الذي كنت وحيده يمدني أبداً بأسباب الهناء ولا يحملني على شيء من العناء، باذلاً جهده ان يبني لي صرح سعادتي بساعديه وقصور احلامي بيديه، لكنه ركب مرة متن البحر، فانطوت عنا اخباره ولم ندر شيئاً من اسراره...

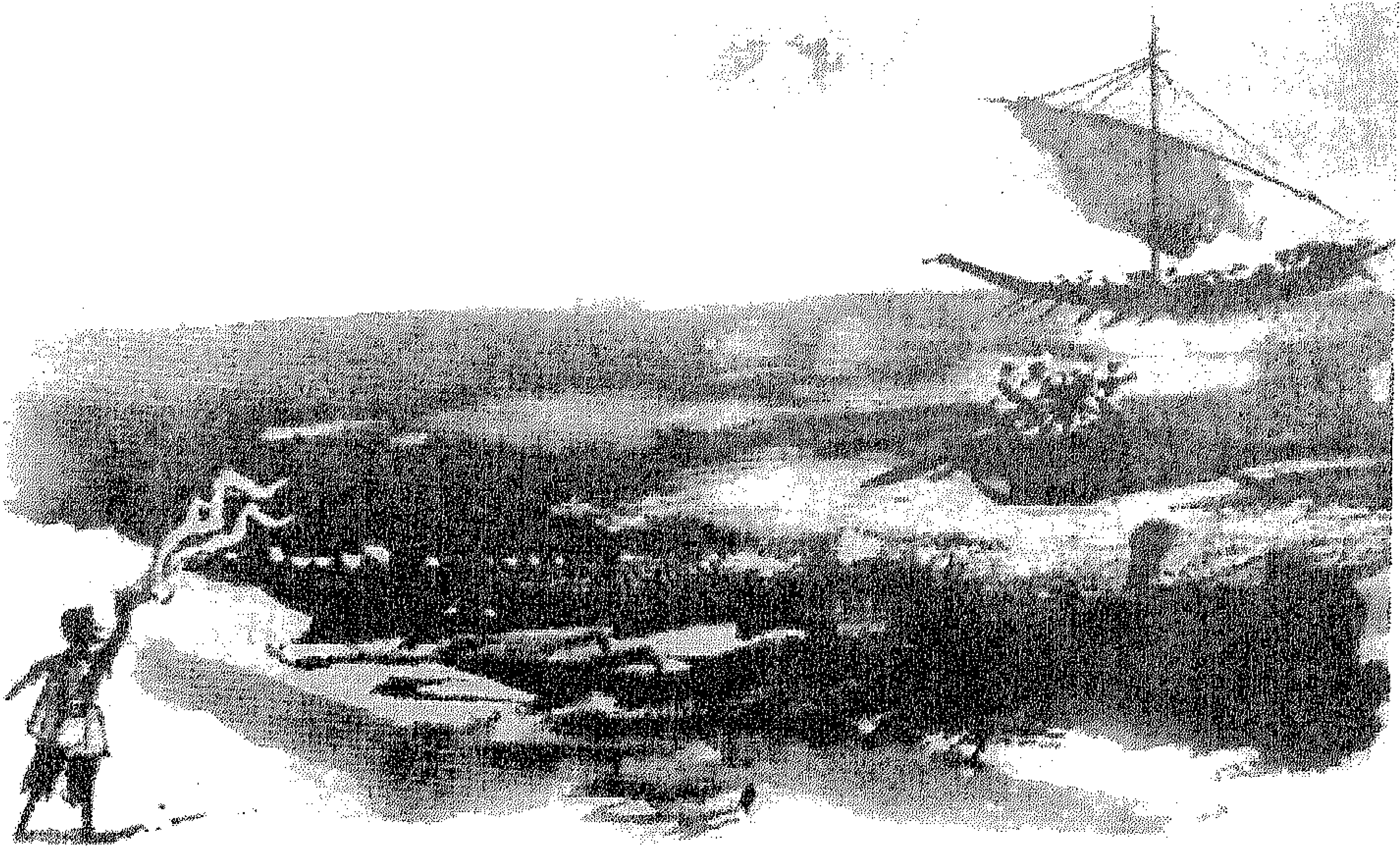
وشببت عن الطوق، وقد آلت اليّ ثروته الضخمة وجاهه العريض، فلم أقتف اثره بالجد والكد، وانما رأيت نفسي ذا مال كثير، وعز وفير، فعجّت في نفسي نزوات الشباب وطيشه، فركبت رأسي

انفق باسراف، ابدد المال كيفما اتفق، انتهب اللذات انتهاباً، ولا احسب للمستقبل حساباً، وثروتي الطائلة تفر من يدي شيئاً فشيئاً فرار الماء من خلال الاصابع... وما هي الا سنوات قلائل حتى اخذ اسمي يتردد على ألسن دلاّلي العقارات، يبيعون ما ابتناه لي ابي، وجمعه بالتعب والنصب، فأنفقته مسرفاً على اللهو واللعب!..

صوت الضمير

وسرت يوماً في احد شوارع بغداد متنكراً، واذا بالدلال ينادي على احد عقاراتي، واذا برجل يحاور صديقه اذ سمع باسمي قائلاً: «رحمة الله على والده ما كان اطيبه، ولكن بئس من ولد... لقد شقي الوالد فبطر الولد، وجمع الاب فبدد الابن... يا الله لهندباد لو ابصرت عيناه ما يفعل سندباد!..» وانني اشهد الله، ما كدت اسمع هذه الجملة الا وتبددت عن بصري سحب الجهالة، وانقشعت غمائم الضلالة، وانجلت لبصيرتي الحقيقة وضاءة ناصعة، وتبينت نهاية طيشي وعبثي وغروري، وانطويت على نفسي احاسبها الحساب العسير، متذكراً كلمات والدي بان الثراء اذا لم يواكبه العمل المستمر والجهد المستحر فسيؤول الى النفاذ ويحور الى التبدد، وايقنت بأنني اسير في منزلق لن يؤدي بي الى غير واهم السراب وخادع الحلم، وان الصحة مع الفقر مرض نفسي، وان الشباب مع الفاقة كهولة روحية، وان ظلمة القبر خير من عبوس الدهر، وان الكلب الجوّال خير من السبع القعود، وانه لا رجاء في الشباب اذا لم يركب الصعاب لبعيد الرغاب!...

وبعد انعام النظر، وتصارع الافكار والخواطر في ذهني، واقتفاء لآثار ابي في الجد والكد والكدح والعمل، ودفعاً لذل السؤال والوقوع في براثن الفاقة اذا ما داهمتني الشيخوخة وقعدت عن العمل، حزمت الرأي على المضي قدماً في تيار الحياة كفاحاً وغلاباً، صراعاً واضطراباً، كي أشيد بنفسي صرح مستقبلي، واعوض ما فاتني في سني لهوي وطربي ونزقي وغوايتي... وهكذا بعت العقار الاخير الذي كانت اوصافه تتردد على لسان الدلاّل، وبأرخص من السعر المرتقب.. لقد بعته، ولكن لا لأجتمع الى بطانة السوء مرة اخرى، وانما لأنصرف الى أتراب أبي من الأخلاء الأوفياء استنير



بآرائهم واعمل بنصائحهم، احذو حذوهم وادلو بدلائهم.

وكما كنت اتوقع، فقد استقبلني اولئك الاخوان من الاخيار استقبال ابن لهم واخ صغير بينهم، وقدموا لي من النصائح ما هو اثمن من اي رأسمال ضخم، كما دلني رئيس التجار على المواد والبضائع الرائجة السوق فيما وراء البحار. وهكذا كانت لي قافلة صغيرة انحدرت جنوباً ميمّمة شطر شط العرب.

وهناك، في مدينة البصرة، وبين غناء البحارة واهازيجهم، كانت الاحمال تستقر في بطون المراكب الشراعية الحبالى بالاماني وَالآمال... وكان يلذ لي - وقد ولدت من جديد - أن أسهم في تنضيد بضائعي وترتيبها ولسان حالي آنذاك قول الشاعر الحكيم:

بقدر الكد تكتسب المعالي

ومن طلب العلى سهر الليالي

يغوص البحر من طلب اللآلي

ويحظى بالسيادة والنوال

ومن رام العلى من غير جدّ

اضاع العمر في طلب المحال

الرحيل

وهكذا رفعت اشرعة المراكب اجنحة بيضاء ناصعة، أو حمراء قانية، أو صفراء

فاقعة، في الوان تتداخل بالوان تداخل الأنغام بعضها في بعض، والريح تنفخ بالاشرعة دافعة المراكب في اليم، جارية على اسم الله... واحتوانا الماء من كل جانب، وقد اطلت علينا عروس النهار متهادية بأعاليها، ونحن نشيّع البرّ، نطوي المراحل مرحلة إثر مرحلة، ونقطع الاميال الميل تلو الميل، حتى كفّت الطيور عن متابعتنا، وكلّت اجنحتها عن الخفقان. وكان الطبل ما يزال يستحث الهمم، والاغاني تمد البحارة بالعزم، والاماني تراود مخيلات التجار، في تلك الزرقة المزدوجة المتلاقية عند خط الأفق حيث تطبع السماء قبلتها الطويلة على جبين الدأماء.

وفي خلال تلك المراحل المتباعدة، لم يكن القباطنة - وكثير منهم يجمع في نفسه طاقة المغامرة إلى رهافة حسّ المتاجرة - يسهون عن التعريج على بعض الجزر فكنا نبيع ونشتري، نقبض الدنانير اللماعة أو نقايض بضاعة ببضاعة، فضلاً عن الثروات المعنوية التي نكتسبها من خبرة وتجربة، ومعرفة بطبائع البشر وأخلاق الناس...

وفي ماتع الشمس معتدل الجو، ليس نسيمه بالبارد ولا حرارته باللافحة، ربيعي يستقبل الصيف بشيء من أنفاس الشتاء، لاحت لنا عن بعد جزيرة صغيرة لو كانت على اليابسة لما شككت في انها مرج ناضر الخضرة يموج بالكلأ ويزين حواشيه العشب... واهتبل قبطان سفينتنا الفرصة فأمر بتخفيف السرعة والاتجاه نحو تلك الجزيرة الصغيرة، طلباً للراحة من جهة، ولرتق الاشرعة الممزقة من جهة ثانية... وكانت للبحارة فرصة يستبدلون فيها ثيابهم ويستعيدون نشاطهم، ويحسبون مقادير ارباحهم...

وتناثر القوم في اطراف هذه اليابسة التي اطلت بجبهتها متحدية متن المحيط، يجوسون أنحاءها ويجوبون جنباتها، وارتفعت القدور في الأثافي، وتحلق التجار والبحارة حلقات حلقات، منهم من انهمكوا بالاكل والشرب، ومنهم من تركوا النفس على سجيتها متصرفين الى اللهو وتزجية الوقت بتبادل الاحاديث المستملحة والنوادر الظريفة الطريفة... ومنهم من توسد الغبراء عالقاً ناظريه بالقبة الزرقاء... اما أنا فكنت عاقداً يديّ خلف ظهري امشي الهوينا، مستروحاً عبير هذه الانسام الربيعية العليلة بعيداً

عن الناس، استرجع خوالي الايام، وما كنت فيه من انغماس في حمأة الشهوات وشيطان النزوات!...

الارض المتحركة

وفيما نحن على هذه الحال، ولما تبلغ النشوة بنا ذروتها، اذا بالارض تميد تحت ارجلنا، وربان المركب يصيح بنا من الطرف المقابل:

- البدار البدار ايها البحارة والتجار... انجوا بأنفسكم والا كنتم من المغرقين!...

ولكن قبل ان يتم الربان جملته هذه، كانت القدور والصحاف وآلات الطرب وادوات اللعب جميعاً، بعضها يطفو على سطح الماء والبعض الآخر يستبق الى قعر اليم، والرجال من بحارة وتجار، هذا متعلق بطرف المركب، وذاك يغالب الموج وتغالبه المياه، يطفو حيناً ويغوص احياناً، يستجير وما من مجير، ويستغيث وما من سامع نداءه.. وآخرون يضربون وجه البحر بيد مرنة وذراع جبارة... وكنت انا وسطا بين هؤلاء المجدودين السعداء، واولئك المنكودي الطالع من التعساء... اطفو على سطح البحر مستعيناً بقطعة كبيرة من الخشب... اذ لم تكن الجزيرة المزعومة سوى حوت كبير توقف مضطراً في عرض البحر في طقس جليدي مفاجئ، وتراكمت فوقه الرمال التي انبتت بعض العشب والكلأ، وعلى أثر ما اضرمناه من مضطرم النيران ومتأجج اللهب، تحررت حركة الحيوان فانساب في الاعماق وكانت الكارثة!...

وشقت السفينة طريقها في عرض اليم بعد ان عمل الربان على انقاذ من استطاعوا النجاة، آخذة سبيلها الى الهند وقد واتتها الرياح وصفا لها الجو، فيما كانت الامواج تتقاذفني هنا وهناك، لا حول لي ولا طول وكل ما استطيعه هو ان اتشبث بقطعة الخشب، التي هي قارب نجاتي، منقاداً لغريزة حب البقاء، اجدّف ان استطعت، واعتمد على الخشبة ان تعبت، واندفع الى الامام بعزيمة القائد الذي قتل عنه جنوده، ولكنه يأبى للراية التي يحملها ان تتنكس، ويرفض ان ينعت بالجبن او التردد او خوار العزيمة، مستمداً من يأسه القدرة على الكفاح والنشاط للجلاد...

وفيما انا رهين الخشبة فوق متن الماء وتحت رحمة السماء اعمل اطرافي

سباحة وعوما في طريق لا اعرف اوله ولا اتبين آخره، والامواج تصخب ذات اليمين وذات الشمال، اذا بي الفي نفسي وانا نصف حي، ازاء جزيرة حقيقية هذه المرة مما جدد عزمي وأمدني بالإرادة، فنشطت بالسباحة، كأنني قد نزلت من توي في الماء... وهكذا اخذ يتطامن من تحت ضربات ساعديَ ورجليّ عاتي الامواج، وساعدتني الرياح على الاقتراب من الشاطئ الذي كان صخرياً كثير المزالق، صعب المرتقى، ومع ذلك وبدفعة واحدة من مؤاتي الريح المواكبة للمد كنت مستلقياً على ارض الجزيرة، والامواج تتكسر تحت رجلي دون ان تطالني إلا بناعم رذاذها وبشيء من زخات رشاشها...

آدم بلا حواء

ولبثت على حالتي تلك ساعات قلائل لا استطيع الى الحراك سبيلاً، لشدة ما انا عليه من الإعياء والاجهاد، والوهن الذي ينخر لب عظامي.. ثم اخذت الراحة تدب شيئاً فشيئاً في أوصالي ومفاصلي، فاستلقيت على ظهري تنقب عيناي محوّمتين في انحاء الجزيرة حيث استقرتا على أشجار الفاكهة الشهية والنباتات الصارخة الالوان، مما شدد عزيمتي وأمدني بقوة دافعة... فنهضت على قدمي اجوس خلال هذه الجزيرة العامرة الطبيعة الخالية من الناس...

وأسعفني الحظ، اذ أنني لم أقطع غير بضع خطوات الا ورأيت نفسي امام معين ينساب سلسبيلا عبر سهل يغيب فيه الطرف، يبهج النفس ويسر العين، وأكببت على طرف الجدول اغمر فيه رأسي واغمس اطرافي بالتناوب، ثم رأيت نفسي في قلب الجدول الاعب مياهه، وَاتراقص على سطحه فرحاً جذلاً قوياً نشيطا، وقد نسيت كلياً مأساة تلك الجزيرة المتحركة التي غاصت تحت اقدامنا وكادت تميتني غرقاً.

واكلت حتى شبعت، وشربت حتى ارتويت، وقمت اجول في انحاء الجزيرة أتنشق الهواء عميقاً، حاسباً نفسي في هذه الجزيرة آدم.. آدم أبا البشر ولكن بلا حواء..

وقضيت اياما وانا سعيد كل السعادة، راض كل الرضى، على ان وهبني الله الحياة بعد اشرافي على





الموت، ومنحني الامل بعد اليأس، والرجاء من قلب القنوط.

وفي احد الايام وأنا اجيل عيناً منقبة في الجزيرة عيناً أنّى التفتت عادت محدقة الى الشاطئ والشاطىء أبداً كأنما هي الابرة المغنطيسية التي كيفما وجهتها مكابراً ظلت شاخصة الى الشمال، والشمال وحده.. واذا بي اسمع عن بعد صهيلاً فيه اجفال وفيه رنة ذعر، وكان ما حسبته اجفالاً اكسير الهدوء يخالط ذاتي، وما توهمته ذعراً خيط الامن الذي جرى في اعصابي.. وتقدمت نحو مصدر الصوت واذا بي أرى فرساً ملكية في إهابها سرّ الليل، وفي غرتها انبلاج الصبح.. فزدت من اقترابي نحوها متوجساً.. واذا بحصان بحري يخرج من اليم ويحاول جر الفرس معه الى اعماق المياه... وكان يضرب الأرض بسنبكه ضرباً شديداً، ويصهل صهيلاً فيه حمى الافتراس... وفيما انا انظر ذاهلاً الى هذا المشهد الغريب، فوجئت برهط من الرجال يخرجون من مكمن خفي ويركضون صارخين بأعلى اصواتهم ملوحين بهراواتهم.. فأسرع حصان البحر الى الانزلاق في الماء والغوص في الاعماق... واصبحت والرجال



المستغربون وجودي وجهاً لوجه، وكان منهم سؤال أفضيت اليهم على أثره بكل طوية نفسي وشرح واقع أمري، فتأثروا تأثراً شديداً وعادوا بي الى مكمنهم مصطحبين الفرس معهم.

حصان البحر

ولما استقر بي المقام في ذلك المكمن، اذا بوفود الرجال تترى، وفداً إثر وفد، واذا بتصهال الخيول يملأ الجو، ولم استطع إلا ان اسأل عن هذه الظاهرة التي شاهدتها فأجابني القوم بأنهم من سائسي اسطبل الملك مهراج الذي تمتد بلاده الى أماد شاسعة، وانهم في كل ليلة عندما يكون القمر بدرا يأتون بفوج من الافراس ويربطونها على الشاطئ، وهناك يخرج حصان البحر من اليم، ويكون تزاوج تلك الحيوانات، ويكون نتاجها خيول لا شبيه لها في اي اسطبل من الاسطبلات الملكية..

وجلست مفكراً في امر تلك الافراس المستولدة من الجياد البحرية، في عملية لها نظائرها باستيلاد الذئبة من كلب او الكلبة من ذئب، ليكون نتاجها جِراء فيها

وفاء الكلب وجرأة الذئب.. وجلس بجانبي سائس ساهم مهموم، مثقل الصدر غماً وأسى، فسألته عن شأنه، فأجابني بأنه رجع خائب الامل، ولم يوفّق في مهمته، فما كان مني الا ان طلبت منه اعادة المحاولة واستطعت أن أقنعه بذلك واعداً اياه بالمؤازرة، وهكذا استجاب لطلبي ونزل عند رغبتي، وربطت الفرس بمنأى عن الساحل قليلاً، وكمنت وكمن الرجل معي..

وصهلت الفرس وأطالت الصهيل، وخرج ملبياً نداءها جواد ليس اجود منه في اعماق المحيط، وما كاد يدنو حتى كنت على صهوته، وقد شددت فمه بشكيمة حديدية ليس اصلب منها.. وهاج الحيوان، واكثر من الرفس، يبغي الاقتراب من اليم، ولكن السوط كان يلسع كفله، وكانت الشكيمة تؤلم شدقه، وكان مهمازان عنيفان يضربان بخاصرته، فلم يفده الشموس ولا التصهال المحموم، فقد كان على ظهره أمرد لا يفيد معه الا الاسلاس..

وكانت لنا قافلة طويلة فيها الراجل والراكب، وسرنا نقطع المراحل، إثر المراحل وانا معتل صهوة جوادي البحري الذي سار متأدباً وسط الافراس حذر ان يلهب السوط كفله فتتدنى منزلته في عين نفسه من جواد بحر الى حمار بر!..

وكان لدى الملك مهراج مهرجان اذ ضَم اسطبله جواداً بحرياً، وهو أمر ما كان ليحلم به البته.. وبذلك غدوت من اقرب المقربين اليه ولا سيما بعد ان عرف رحلتي وكيفية نجاتي، وضمني الى حاشيته، ثم جعلني كاتباً لمرافئه، فسررت لذلك اذ كنت شديد التوق الى وطني، بالغ الشوق الى اهلي، فكنت اقضي بياض نهاري على الشواطئ وآوي ليلاً الى القصر لاستمع الى احاديث القوم عن اخبار الامم وانباء العالم، فأمتع النفس بطلي الحديث وانير الفكر بمشاعل العلم والحكمة والفلسفة، أعمق تجاربي وأوسع دائرة معارفي، كما اني لم احرم نفسي حضور مجالس اللهو والطرب واستنطاق الاوتار والنقر على الرقوق...

ولقد استهوتني معالم جزيرة صغيرة في بلاد الملك مهراج الواسعة، تدعى جزيرة كابل، تشتهر اكثر ما تشتهر

يتعدد اصناف اسماكها، وغرابة اشكال تلك الاسماك، ومن بينها اسماك ذات وجوه شبيهة كل الشبه بوجوه البوم، وهي صغيرة لا تعدو الذراع طولاً، على حين ان بينها اسماكاً يبلغ بعضها مائتي ذراع طولاً.. وثمة اسماك غيرها ليس باستطاعة الانسان ان ينظر الى مقدمتها لكثرة ما يثير منظرها في النفس من الذعر والخوف، على حين أنها اضعف الاسماك واكثرها وقوعاً في الشباك واخرى رعادة، وضرب رابع ذات ظهر منشاري وخامس يتقدم فمها خرطوم هو سيف حقيقي ومع ذلك كثيراً ما كانت في المقلاة!...





السفينة الضائعة

وبكرت ذات يوم الى المرفأ اتجول فيه، ونفسي تعتلج بمختلف المشاعر ومتباين الاحاسيس، ولا ادري لم كنت ذلك اليوم اعيش بخاطري في مقاصف بغداد وملاهي الكرخ، حتى اذا ما صرفتها عن مخيلتي تصورت لي البصرة بربوعها وحركة مينائها وغناء البحارة، وتراقص السفن الشراعية على صفحة مياهها، فأصعد زفرة واغالب عبرة...

وفيما انا على هذه الحال لاح في الافق القصي شراع هو جنح الحمامة العالقة في الفخ تلاعباً في الريح... فكاد قلبي يسري بين ضلوعي لرؤيته، وجمدت في مكاني جمود الصخر لا احيد يميناً ولا اتحرك شمالاً وكلي اعصاب متوترة مشدودة متركزة في ناظري المحدقين طويلاً في ذلك الشراع الخاطر تهادياً على صفحة الماء.

وازدادت السفينة قرباً حتى تبينت البحارة، وقد وقفوا صفاً طويلاً في مقدمة السفينة يغنون وينقرون على الرقوق بصلاة شكر لله على انهم وصلوا الى محجتهم بسلامة، فازداد وجيب قلبي، وتسارع نبضي، وتشابكت الرؤى

في مخيلتي لدى سماعي كلام البحارة وغناءهم وهو باللسان العربي المبين...

وكانت حركة الارساء مناورة بارعة قام بها الربان عبر مئات ومئات من السفن، وانزلت القلوع، والقي بالمرساة في اليم، وامتدت الحبال تشد السفينة الى الشاطئ...

وباشرت مهمتي باحصاء طرود التجار ومحتوياتها لاستيفاء الرسوم عليها، ثم نزلت الى قاعة السفينة باحثاً هنا وهناك، فوجدت ركاماً من البضاعة يتكدس بعضها فوق بعض، واقتربت من الربان قائلاً:

ـ وهذه البضاعة لمن يا ريّس؟

ـ ليست للبيع يا سيدي، وقد مات صاحبها عنها...

ـ وما اسم صاحبها بالله عليك ايها الاخ الكريم؟

ـ انسان طيب يدعى سندباد بن هندباد.

ـ شكراً لله العادل الحكيم، فهي بضاعتنا ردت الينا، وشكراً على امانتك يا ريّس..

ـ بماذا تهذر يا رجل؟ صحيح ان الامانة قلت في هذا العصر، وكثر المتطاولون على الحق، وفاقهم عدداً المبطلون المدعون ما ليس لهم.. اسمعوا يا أناس، ان هذا الشاطر يدّعي ببضاعة السندباد... رحمة الله عليك يا ابن سندباد، لقد عشت جلوداً ومت شهيداً.. آه لو كان للاسماك السنة تتكلم، اذن لمدت لك سمكة فمها في الهواء واشارت بزعانفها الى بطنها قائلة: «هنا استقر السندباد!.»

قال الربان ذلك ثم اخذ يربت على بطني تربيتاً خفيفاً نصف مازح ونصف ساخر، ومع ذلك تجلدت وصبرت، حتى اذا انتهى من معزوفته تلك اجبت بكل رباطة جأش وهدوء بال:

ـ اشكرك يا عزيزي القبطان، ولكن السندباد الذي ظننته مات غرقاً منكود الطالع في الجزيرة الخالية من السكان، والتي هي بحقيقتها حوت متجمد، ما زال حياً يرزق، فقل ان شئت: «سبحان من يحيي العظام وهي رميم..»».

واجابني الرجل مبهوتاً محملق العينين:

ـ ماذا تقول؟ بالله عليك ماذا تقول يا أخي؟..

-ـ اقول لك الجزيرة الموهومة التي غرق حولها الكثير من البحارة، وقد وقفت انت على مقدمة السفينة ملوحاً بعلمك الاحمر صارخاً جازعاً: يا طلاب السلامة اسرعوا... يا طلاب السلامة اسرعوا..».

ـ يا الله. كأنني في حلم مزعج يا يا أخي.. ان قصتك هذه لغريبة..

ـ ليس هناك من شيء غريب، وانما رزقني الله السلامة فنجوت سباحة..

ـ يخيّل اليّ انك على شيء من الحق..

ـ شيء من الحق يا ريس؟.. إذن افتح هذه الرزمة البيضاء ففيها الحرير الدمشقي، وافتح تلك الزرقاء التي بها البرود اليمانية، وهذه.. وهذه.. وهذه الأخيرة التي فيها سيوف هندية عدتها خمسون سيفاً بينها سيف عاجي القبضة ان عالجتها انفتحت لك عن حق صغير فيه خمس عشرة لؤلؤة من أكرم لآلئ الخليج..

ـ الحمدلله على سلامتك يا اخي... الحمدلله..

ثم كان بيني وبين سائر البحارة والتجار عناق وذكريات واخبار..

العودة المظفرة

وفي المساء دخلت على الملك مهراج بثوب تاجر بغدادي، احمل بيساري الاوراق والدفاتر وقرطاسية كاتب الميناء، واحمل بيميني سيفي الفريد ذا القبضة العاجية، وقد فتحتها أمامه فأنتثرت منها اللآلئ الخمس عشرة، وكلها يتيمة عديمة النظير لا يليق بها إلا أرفع التيجان او جيد أسمى الملكات..

ونظر الملك مبهوراً من تلك الخرائد التي تسلب اللب وتبهر النظر، ولم يدر كيف يقابلني على تلك الهدية، وبعد قليل من التفكير والروية رفع اليّ رأسه وقال مبتسماً:

ـ حقاً انك رجل عظيم في قومك يا سندباد، كريم حتى التلف، سخي حتى لا سخاء.. لقد حيرتني سابقاً بحديثك ومغامراتك وقوة شكيمتك التي روضّت حصاناً بحرياً هيهات ان يضم مثله اسطبل ملكي، وتحيرني الآن بكرمك واستهانتك بالمال.. وعلينا نحن ان نرد لك جزاء بعض ما قدمت لنا.. واول ما



اقدمه لك يا سندباد هو ان نعفي سائر اخوانك التجار من المكوس، وان كل سفينة عربية معفاة كذلك من الرسوم. ويستطيع اخوانك الان ان يتصرفوا بين ظهرانينا تصرفهم في بلادهم واسواقهم، وحرام على تجارنا أن يتقاضوا هذه المرة أي ربح على كل ما تشترون.

ونزلنا الى السوق فبعنا تجارتنا بأرباح مضاعفة، واشترينا كل ما غلا ثمنه من نفائس البضائع الهندية والتحف الصينية والطرائف الفارسية، يتوّج كل ذلك عيدان الند وحبات المسك وأخشاب الصندل.. ولما احتوانا المركب كان في مقدمته مهر فريد في عالم الجياد بحري الاب وبري الام قدمه الملك مهراج هدية لخليفتنا العظيم، كماضمت قمرة الربان حلة محيكة من الخيوط الذهبية والفضية ومطعمة بأثمن الأحجار الكريمة هي كذلك

هدية لسيد العالم الاسلامي امامنا الاعظم هارون الرشيد.. اما نصيبي الخاص من الهدايا فأشياء لا يمكن تثمينها ابداً..

وكانت لنا جولة في البحار، كانت نهاية مطافها البصرة لؤلؤة الموانئ، أما أنا فقد تابعت رحلتي الى بغداد في مركب شراعي حفاظاً على سلامة النادر في الجياد وكان سرور خليفتنا العظيم بأخبار مغامرتي هذه اكبر من سروره بالهدية الكريمة التي حملتها اليه من وراء البحار..

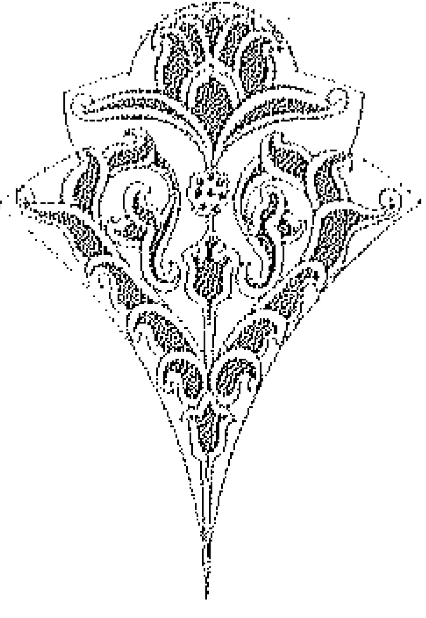
وكانت لي ايام في بغداد قضيتها غريق السرور والحبور، وعمرت ايامي بالأفراح ولياليّ بالمتع الملاح، وكانت لي عقارات واراض واموال كلما صرفت شطراً ونظرت الى صناديقي رأيت اقل قليلها يكفي لعيشي مهما امتد بي حبل الأجل، على أرغد مستوى وارفع منزلة، وهذه ايها الاخوان مغامرتي الأولى التي فيها شيء من سر ابي.

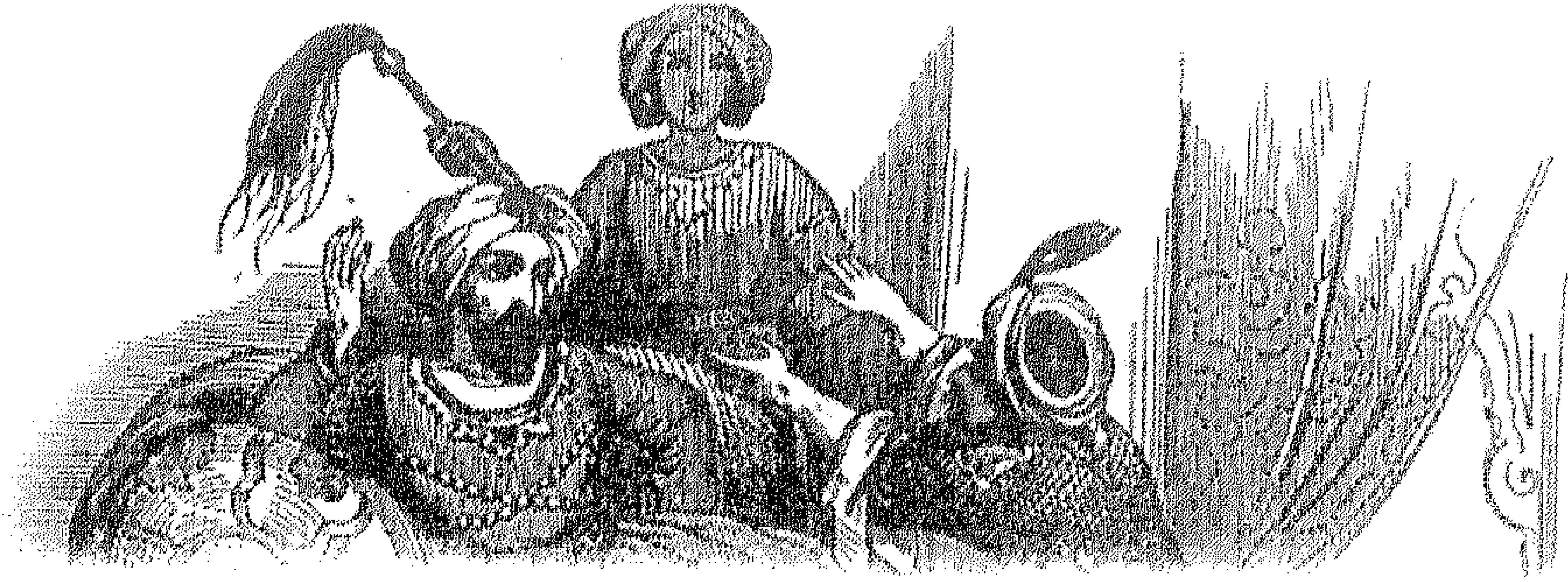
وعندما وصل السندباد بحديثه الى هذه الغاية، صفق تصفيقاً خفيفاً، واتى باشارة لطيفة لرئيس خدمه، وما هي غير لحظات قلائل حتى عمرت المائدة بأطايب الطعام، ومختلف الفواكه، ولذيذ الثمار. وتقدم الضيوف من المائدة في حين اخذ افراد الجوقة الموسيقية اماكنهم يعزفون ارق الالحان واروع الانغام، فيما الضيوف يتناولون الطعام، ويتعاطون الشراب، ويتحدثون سامرين يتبادلون النكت الظريفة والاخبار الطريفة.. حتى اذا شبعوا وارتووا غناهم المغنون فأجادوا الغناء، ورقصت حيالهم الراقصات فبرعن الاداء.

وقبل ان ينفض الجمع قام السندباد من مكانه وتغيب قليلاً، ثم عاد ومعه كيس من النقود الذهبية دفعه الى سميه سندباد الحمال وهو يقول له:

ـ اليك هذا ايها الاخ فأصلح به امورك وموعدنا الغد.. وأكب سندباد الحمال على يد سندباد التاجر شاكراً ومعتذراً، يفيض قلبه بالسرور ويترنح من الحبور، وخرج من القصر معتدل القامة منتصب الهامة، تسبقه ضحكته وهو ميمم شطر الباب..







في وادي الرعب

كان جو هذا اليوم ألطف من جو أمس، وشهد الناس سندباد الحمال الذي كان يسير في الاسواق متسكعاً وحبله على كتفه وزناره متهدل حتى حقويه يجر رجلاً في الخف ورجلاً خفها ما غلظ من أديمها.. شهدوه وهو يطفر بين اكوام فواكه الطوافين، ثم ينقلب الى الخراف في محال الجزارين، وقد تبدلت قبعته عمة، وأسماله ثوباً أنيقاً، ونعله خفاً رشيقاً، وهو يسير في السوق مبتسماً، ويخطر في الشارع مترنحاً، وبعد أن عرج على بيته بخفيف أحماله، أخذ سمت الطريق الى الشارع الرئيسي حيث يقع قصر السندباد.. يمشي ونفسه تستحث خطاه، وخطاه تستجمع قواه، ونشاطه الداخلي أضعاف أضعاف نشاطه الظاهري، تفتر ابتسامته من خلال شاربيه الذين شذبهما مقص الحلاق، اكثر من شفتيه اللتين ما تزال تعتليهما أخاديد الشقاء، لكن أجمل ما في سيمائه تلك البسمة التي كانت تغمز بها عينه، وهو واقف أمام باب القصر حيال حارسه.. انه سندباد سميّ صاحب

القصر، امسى بالباب الذي كان دونه ألف ستر وحجاب..

وانحنى الحارس امام سندباد الحمال محيياً ومرحباً.. فهو يعرفه وان اختلف عليه شكله ومظهره، يعرفه من رنة صوته وحلو اشارته..

ودخل سندباد الحمال القصر، وكان سندباد التاجر ما يزال ببزة الرقاد، يتمشى في القاعة الكبرى، تخطر حوله إماؤه، وتصدر الأوامر من خلف الستائر نساؤه، والجو كله حركة وانفعال..

ورحب المضيف بضيفه، وطبع على وجنته قبلة فيها عطف ومحبة وأشفاق، ثم اخذه بيده وجلس واياه في الشرفة يستمعان الى دعاء الطير على الشجر، وحفيف الاوراق اذ تتغلغل في ثناياها همسات الريح، والجو تعطره أنفاس دجلة المباركة الخالدة...

وما هي الا فترة وجيزة حتى كان كل شيء معداً في مكانه، وكانت الجوقة الموسيقية قد شرعت تضفي على القاعة الكبرى آية نعمة الفن، وكان الاجتماع قد كمل نصابه، فاتخذ السندباد مكانه من صدر القاعة وهو يقص على ضيوفه مغامرات الرحلة الثانية، ويحفل اكثر ما يحفل بسميّه الذي كان بجانبه، تثير كلماته فيه الذكريات التي هي رجع الصدى لأعمال تكاد تكون لروعتها من الاساطير، مغامرة في اقيانوس الحياة الخطير، وكان الجميع في هذه اللحظة اذاناً صاغية، ونفوساً واعية لما يقول:

ايها الاخوان والاصدقاء.. بعد رحلتي الاولى كانت لي أيام كلها أعراس ومهرجانات، لا تفرغ كأس المسرة إلا ملأتها، ولا تنقضي ساعة غبطة إلا جددتها، ان هدأت فلأتقلّب على وثير الفراش، وان نمت فلأستيقظ على غناء قينة أو عزف موسيقى أو تغريد طير.. لكن ركضي في مدان اللهو، واضطرابي في مسرح الملذات، لم يكن يعادل عشر معشار لحظة السرور التي رأيت فيها بلاد الملك مهراج، وأنا اغالب اليأس وأقوى على الامواج.. وقد أخذت الحياة تبدو لي رتيبة مملة، باعثة للضجر، تنفث في أوصالي السأم، وأخذ جليد الكسل والتراخي يكبل ذاتي بقيود غير منظورة لكن اشد خطورة من كل غل، وأثقل على النفس من كل قيد، فاضطرمت في جوانحي رغبة ملحاح عنيفة لركوب عباب

البحر ثانية، والضرب في دنيا الله، والسعي في مناكب الارض، ليس طلباً للربح بقدر ابتغاء الراحة للروح..

وما هي سوى ايام قضيتها على هذه الحال حتى كنت أعتلي سفينة شراعية كبرى واحداً من تجار بغداد والبصرة، وكانت السفينة تشق بحيزومها الامواج المتلاطمة المرغية المزبدة، ونحن ننتقل بين جزر البحار تنقل الطير بين الاشجار، لا ننزل جزيرة الا وقد تخففت احمالنا وكثرت ارباحنا، وماخرجنا منها الا وعادت الاحمال تتكدس والنقود تتضاءل، لتعود الحياة الى دورتها فتكثر الدراهم متزايدة متضاعفة..



ونزلنا ذات مرة في احدى الجزر التي كانت فردوساً حقيقياً، تموج بيانع الخضرة التي تبرقشها الازهار المختلفة الألوان، المتباينة الاشكال، وتزينها جداول رقراقة تجري مدمدمة دمدمة أوقع في النفس من رنين الدينار في كف المعدم..

واخذ التجار يجوسون أنحاء هذه الجزيرة التي زينتها يد الطبيعة وزخرفت أطرها دون ان يكون فيها ساكن واحد.. وفيما كان التجار يتلهون بجني الثمار وقطف الازهار، والعبّ من ذلك الماء الكوثري، طغت النشوة على نفسي فتركتها على سجيتها ورحت أدمدم بأغنية بغدادية اهاجت في نفسي ذكرى قينة كان رنين صوتها في أذني أشبه بحفيف أجنحة الملائكة..

الوحدة القاتلة

وذهبت بعيداً بعيداً، ناسياً نفسي وتجارتي وميلي الى المغامرة والمخاطرة، أمد اليد بين الحين والحين الى فنن من الأفنان المثقلة، أطعم لذيذ الثمر، موغلاً في درب لا نهاية لها.. ثم شعرت بجاذب خفي يقيدني الى ذلك الجدول السائل متعرجاً على لآلئ حصبائه، فاستلقيت على ضفته هانئاً سعيداً، فما لبثت ان ثقلت اجفاني واستغرقت في نوم عميق لا أستيقظ منه الا على لفح البرد الخفيف الذي أخذ ينفذ نفاذاً خفياً الى أعضائي.. وفتحتُ ناظري فاذا الظلمة تكتنف الجزيرة من سائر اطرافها، والسماء تضحك مني بعيونها النورانية، ويفيض من الاشعة الفضية التي يرسلها البدر فتتسلل من خلال الاشجار منطبعة دنانير فضية هيهات أن يقبض عليها..

ونهضت مذعوراً راكضاً صوب الشاطئ، تسبقني اليه أصوات استغاثتي ومتصل ندائي، ولكنني لم أكن اسمع غير صدى صوتي ولا شيء غير ذلك.. فاعتراني اشد الخوف، وانتابتني رعدة شديدة هزت أوصالي هزاً عنيفاً، اذ لم أجد من أثر لرفاق السفر.. ووقفت على الشاطئ أعيد ندائي واستغاثتي فلا يجيبني غير هدير الماء الصاخب، فأدركت للحال اني أمام كارثة جديدة قد تكون فاتحة لكوارث غيرها..



وانتظرت حتى أشرقت الشمس
فهرعت مرتقياً قمة ربوة ترفع جبهتها
الى العلاء ولكن دون تشامخ أو كبرياء،
تطأطئ الرأس حيال الجبال قانعة
بمركزها بين التلال، وارسلت نظري نحو
أقصى الافق، فلم أر على صفحة الماء اي

أثرٍ لسفينتي أو أية سفينة أخرى..

الا اني ما لبثت ان تمالكت نفسي وهدأت روحي، موقناً بأنه ليس من جدوى للفرق او القلق أو انهيار الأعصاب، وبأني إن لم أتحل بالجلد والصبر على المكاره فسأموت هما وكمدا، فأطلقت ضحكة مجلجلة وأنا انظر في عين الشمس المتقدة، وعدت أهبط التل أفكر وأتدبر...

وقد رأيت انه ينبغي لي السير في هذه الجزيرة بعيداً عن مكتظ أشجارها، وعدم التوغل في أعماقها، عسى أن أجد فيها أناساً، او تقع عيني على سفينة مقبلة يمكن ان تخرجني منها، فأتخلص من هذه الوحدة القاتلة.. وعلى هذا مضيت أجوس الجزيرة محاذراً الا ابتعد كثيرا عن الساحل، مغالباً الافكار السوداء التي كانت تتوافد متشابكة في مخيلتي، معللا النفس بالنجاة والخروج من هذه الجزيرة، وكلما شعرت بالتعب مضيت الى الغابة اتفيأ ظلالها، وأتغذى من ثمارها، وأروي النفس من معين كوثرها.. وكثيراً ما كنت أنحي على نفسي باللوم والتقريع لأنني لم اقنع من الغنيمة بالاياب وأبقى حيث كنت في بغداد انعم بكرخها ودجلتها، وسحر عصر خليفتنا العظيم هارون الرشيد.. ولكن بواعث الامل كانت تعود فتتغلب على عوامل القنوط، وخيوط الرجاء تبدد غياهب اليأس، فأنهض وانا اشد عزماً وأمضى عزيمة، أعني لنفسي حيناً، واستمتع بصداح الطيور أحياناً، أستريح طوراً وأمضي قدماً أطواراً.. وكثيراً ما كنت اطيلُ التحديق في زرقة البحر البعيدة، فأشعر بهذا اليم العظيم ساقية صغيرة امام محيط النفس البشرية!..

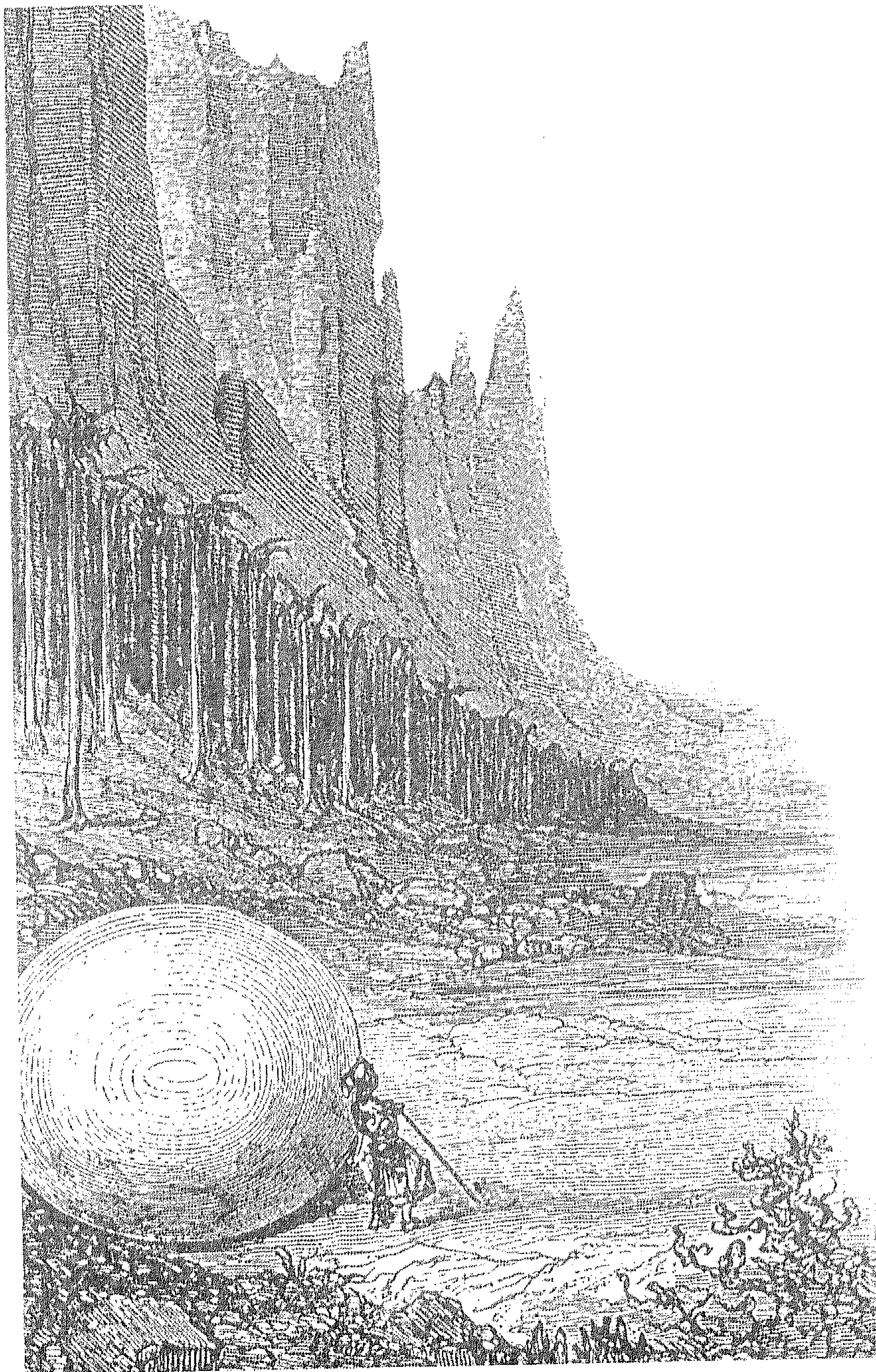


الطائر العجيب

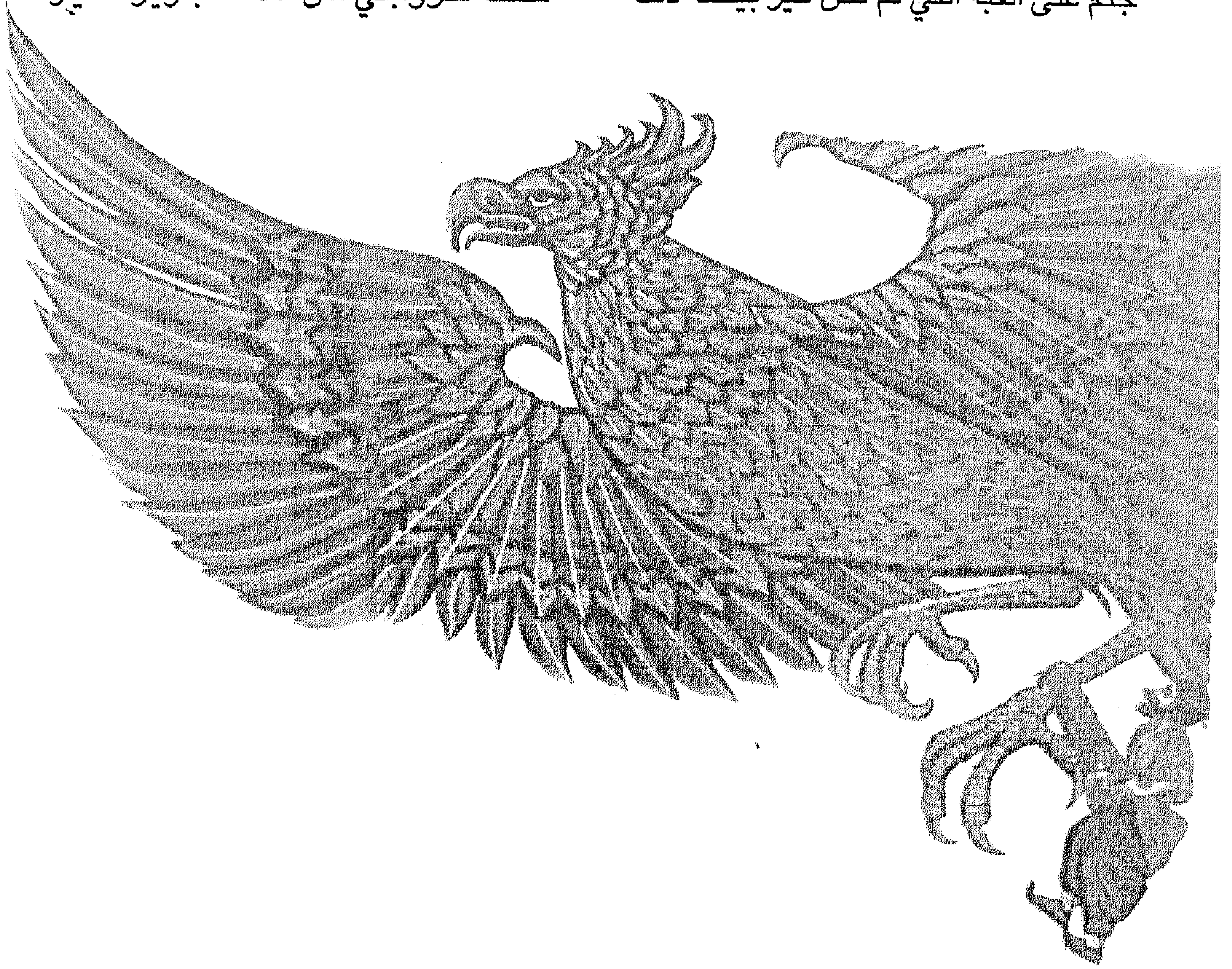
وفيما انا في مسيرتي هذه، او بالاحرى متاهتي، رأيت تلاً أسمى ارتفاعاً وأعلى قمة من التل السابق، وبحركة لا شعورية رأيت نفسي أحث الخطى نحوه، مرتقياً السفح، تدفعني غريزة حب البقاء الى استعجال ارتقاء قمته، وما ان بلغتها واشرفت منها على الطرف المقابل حتى الفيت ذاتي أمام سهل واسع يقصر الطرف عن بلوغ غايته، يحصره البحر من جهة والغابة من جهة ثانية، ويقوم في وسطه البيت الوحيد الذي وقع عليه بصري في هذه الجزيرة وهو على شكل قبة ناصعة البياض، كأنما يبرق لونها بسريرة الانسان الصالح، فاستبشرت خيراً، وأيقنت بأن هذه القبة لا بد ان تكون صومعة لناسك زهد الدنيا وآثر الانقطاع عن مغريات الوجود اعتكافاً وتعبداً..

وأسرعت منحدراً عن التل انشد قبة هذا الانسان الصالح، وقلبي يخفق حفقاناً شديداً، تتراقص الاحلام في نفسي، وتتشابك الرؤى في مخيلتي، وأمنّي النفس بأمان بعيدة المنال لا يرتقى اليها إلا على أجنحة الخيال.. ولما بلغت قبة الانسان الصالح وأخذت أدور حولها، وجدتها موصدة ولكن لا باب لها، كما انها ممردة ملساء لا سبيل الى ارتقائها، فأخذت أدور حولها وادور باحثاً منقباً عن فجوة او اشارة او علامة لأثر باب او نافذة او طاقة ولكن على غير جدوى... فهي كل متماسك ينزلق عنها الطرف ويحار بأحكام استدارتها اللب، من المستحيل ارتقاؤها ولا مجال للنفوذ اليها..

ولما تعبت من الدوران حولها ويئست من ارتقاء سطحها، ابتعدت عنها قليلاً، انعم فيها النظر وأمعن الفكر، واطرح على النفس السؤال تلو السؤال، ويستجيب ذهني للخاطرة إثر الخاطرة، حول كنه هذه القبة وكيفية بنائها.. وفيما انا في بحران التكهنات والتعليلات، شعرت بانحجاب الشمس عن ناظري، وامتداد غمامة كثيفة من السماء، وبهبوب ريح باردة تلفح وجهي.. فرفعت نظري الى السماء تسند يدي اليسرى طرف



عمامتي حذر وقوعها على الارض، رافعاً يدي اليمنى امام عيني لأرى إلى هذا الكسوف المفاجئ للشمس، لكنني شاهدت، ويا للهول، جناحين يخفقان في السماء دون ان أستبين رأساً لطائر او ذيلاً له.. وما هي سوى لحظات إلا وكان أثر خفقان هذين الجناحين على الارض ما يشبه العاصفة.. وفي اقل من لمح البصر جثم على القبة التي لم تكن غير بيضة ذلك الطائر الجسيم، محتضناً إياها.. وللحال عادت بي الذكرى الى احاديث ربابنة السفن عن طائر الرخ الذي يزق زغب فراخه بصغار الفيلة لما هو عليه من الضخامة والجسامة... وفي اللحظة ذاتها كنت منطرحاً ارضاً يدور في خلدي الف حساب وحساب، ولم يطل بي الوقت إلا وكنت مستجمعاً شتات افكاري، وراسماً خطة خروجي من هذه الجزيرة غير

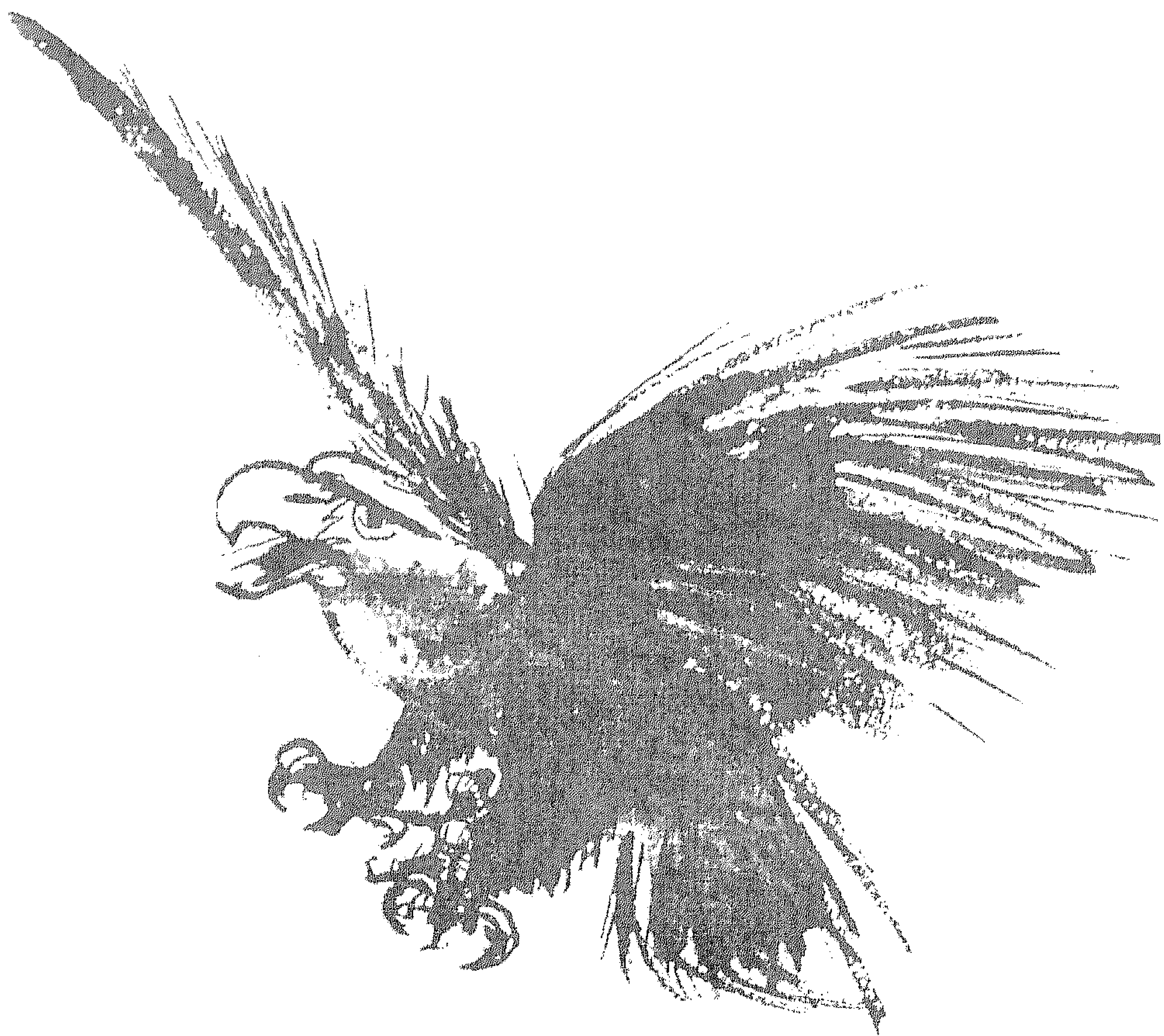


المأهولة، وكانت يداي تعملان بشكل آلي فتلا بعمامتي التي غدت على شكل حبل شددته الى حزامي، موثقاً كلا من طرفيه بمخلب من مخالب الطائر الذي همد نائماً على بيضته فلم يشعر بي، على حين اني ظللت اترقب وأترقب، منتقلا بخاطري من مصير مجهول الى مستقبل لا خيط رجاء في ثناياه!..

رحلة في الفضاء

ومع اشراق الشمس كان طائر الرخ جناحاً يخفق على حواشي الأفق موازياً السحاب حيناً ومرتفعاً عليه طوراً، وأنا مشدود الى طرف مخلبه كهنّة عالقة به علوق ريشة من ريش خوافيه.. وكانت لي جولة في الجو نظرت من خلالها الى البحر فاذ هو عين زرقاء كبيرة لا يحيط بها جفن او اهداب.. اما الجزيرة التي خلفتها وراء ظهري فلم تكن في ساحة الرؤية اكبر من لوحة على خارطة ورقية، ولم يكن دوحها وعظيم اشجارها باكبر من اضمامة زهر بيد طفل...





وعلى الرغم من ان الطائر كان يطير في وجه الشمس فان خفق جناحيه كان لي بمثابة مروحتين بالغتي الضخامة.. وكان الرخ يقطع بي المرحلة إثر المرحلة، يقرب بعيد المسافات، ويدني أنأى الغايات.. وفيما كان يخيل اليّ اني لو مددت يدي الى الفضاء لـلامست قرص الشمس، اذا بالطائر ينقض انقضاضاً مفاجئاً على الارض.. وما كدت الامس سطح البسيطة حتى كانت يدي تعمل بخفة ورشاقة بطرف وثاقي الى مخلبه.. وبأسرع من لمح البصر رأيت طائر الرخ يعاود التصعيد محلقاً في الفضاء، ملتقطاً بمنسره ثعباناً بالغ الضخامة يتلوى على ذاته، ورأسه الى اسفل وذيله في المنسر الذي يوغل في التصعيد، ولم يفزعني

شيء في حياتي كما افزعني فحيح الثعبان الذي اخذ بغتة، فغلب على أمره فلم يستطع ان يعمل نابه في غريمه..

ونظرت فيما حولي فألفيت نفسي في واد سحيق غير ذي زرع، تكتنفه شم الجبال من سائر جهاته، حتى خيل إليّ اني في بئر... ونظرت إلى أعلى فرأيت السحاب ينعقد على ذرى تلك الشواهق فصحت: أية هوة سحيقة رميت نفسك بها يا سندباد؟!.. تلك حال الكافر بنعمة ربه الذي انتقل مختاراً من أعماق النعيم ليرمي بنفسه في هذا الجحيم!..» وندمت اشد الندم على مغادرتي الجزيرة الغناء الفيناء..

لكنني، وعلى جاري عادتي لم اقف مكتوف اليدين حيال الورطة التي ألفيت نفسي فيها، وانما قمت انفض عن نفسي الغبار الذي علق بي، وأخذت أجوس هذا الوادي علّني اجد فيه شعباً واحداً اتسلق منه راقياً السفح، لأنه عزّ عليّ ان اموت في هذا البئر الفسيح الاطراف...

ارض الماس

وفيما انا في طوافي ابحث وانقب، بهر نظري بريق غريب عجيب، اذ وجدت نفسي وكأني امام جمرات متقدات في وهج الشمس.. لكن الأعجب من ذلك ان هذا البريق ليس وراءه حريق، وانما هناك انعكاس لنور يكاد يضارع الشمس بمتناثر شعاعها.. فترددت قليلاً لدى رؤيتي هذا الضوء الذي كاد يعشى له بصري... ثم اقدمت متشجعاً واذا بي أرى، ويا للعجب، أكواماً من الماس ذات وجوه متعددة مجزعة بانتظام عجيب، مبعثرة هنا وهناك، تبعثر الحصى والحجارة في مسيل المياه.. فلم اقدر ان أكبح ما افتعل في اعماقي من الصياح: «يا للعجب.. يا للعجب.. يا لجود الطبيعة في هذا الوادي الموحش..»

وشرعت أجمع وأجمع، ولكن هل لصبي ان يجمع حصى مسيل مياه؟.. وحاولت أن اختار، فغاب وعيي بين الخريدة المجزعة، واليتيمة المكعبة، والمعجبة الكروية.. وادركت حينئذ ان من العقل الا اعمل عقلي، وان من بعد النظر ان اغمض ناظري واجمع كيفما اتفق.. حتى



اذا ثقل عليّ الحمل، ورزحت دون العبء، اعتمدت رأسي بيدي وقلت مخاطباً نفسي: «آه يا سندباد لو تكون الآن في بغداد، وبحوزتك هذه الخرائد وتلك الفرائد!...»

وطغت على نفسي أشتات المشاعر من الخوف والاطمئنان والامن والقلق، والحزن والسرور، والغبطة وزفرة الآه التي لو مسّها الجمر لاحترق بها الجمر... وفيما انا في هذا البحران من العواطف



المتضاربة، عادت الدنيا فاسودت بناظري، وكنت كمن ينظر الى الوجود من خلال نقاب اسود كثيف، وزايلني كل ما عمر قلبي من عوامل الامل والاطمئنان والغبطة والسرور، منقلبة الى نقيضها من الجزع والقلق والكمد القاتل، اذ وقع نظري على ثعبان كأنه من كبره لا يزحف زحفاً وانما يتقدم بقوائم الماموت.. ثعبان لو فغر فمه لابتلع قارباً بركابه، ولو مد لسانه لاجتذب الى جوفه اضخم الفيلة، ولو كان ظاهر الناب واطبقه على رحى الطاحون لأحاله هباء دقيقاً.. ثعبان لا يقوى عليه وعلى فصيلته سوى طائر الرخ.. لذلك فانه قل أن يسعى في جنبات الوادي إلا ليلا، عائشاً في الظلمة، لا أنيس له إلا وحشة الليل وكثيف العتمة..

ليلة الهول

وعلى ذلك قضيت سحابة نهاري وانا أجوس الوادي لا اقف إلا لأمشي، ولا أستريح - وهل للقلق من راحة - إلا لأعاود المسير أتشمم بحاسة الثعلب، وانظر بعين النسر، واتقدم بخطى ابن الليل.. وفيما انا على هذه الحال من البلبال، وقع طرفي على فجوة بجانب الوادي يراوح مشهدها بين شكل الغار وهوة اللحد القريب القرار.. فدخلت تلك الفجوة وانا اقول في نفسي بعد ان اغلقتها بالحجارة: «الموت في هذا الناووس لأهنأ لدي من الاستقرار في بطن الثعبان المنحوس!..» ولم انس ان اترك بين ركام الحجارة فجوة اشاهد من خلالها ضياء القمر، واستطيع ان ارى تلك الزواحف الهائلة من حيث لا تراني وهي تجوس جنبات الوادي..

وبعد ان شعرت بالراحة والاطمئنان تبلغت قليلاً من الزاد الذي حملته معي، وأرحت ظهري للارض متمدداً عليها، مستسلماً بحذر، مراقباً بيقظة.. ويا لها من ليلة نابغية تلك الليلة التي قضيتها وانا انظر الى الافاعي التي يبلغ ثخن الواحدة الرفيعة منها رجل الفيلة، اما الطول فحدّث ولا حرج.. وكانت خلال جولتها الليلية هذه تطلق فحيحاً لو وعاه قلب الليل لأصبح ابيض خوفاً ورهبة. ولا سيما عندما تتعارض في زحفها.. وهكذا كنت طوال ذلك الوقت فكاً مصطكاً، واوصالا مخلعة، واجف القلب، متقطع الانفاس، مشدوه الخاطر، جامد حدقة العين، ولم اتنفس بارتياح إلا عندما لاحت خيوط



الصبح الاولى، وارتدت مستودعات السم الرهيبة الى جحورها، خائفة من نور الشمس وبالاحرى من مخالب طيور الرخ ومناسرها..

ولما أصبحت على مثل اليقين بأنني غدوت بمأمن من ذوات عصل الأنياب، دفعت بركام الحجارة أمامي خارجاً من هذا الجحيم المقيم.. وكنت في طريقي في الوادي اتعثر بحجارة الماس فلا اعيرها اي التفات، لا أتمنى شيئا غير ان أتشمم رائحة تراب بغداد ولو على الفقر والجوع لا مأوى ولا زاد...

بين مخالب النسر

وفيما انا على هذه الحال من نفاذ الصبر وحرج الصدر والتخبط والاضطراب، إذا بي أشعر بأن ظل الرحمة ما زال يكلأني، وان نافذة الأمل فتحت لي من حيث لم احتسب، إذ شاهدت على حين غرة سقوط قطعة ضخمة من اللحم الطازج إلى قعر الوادي، فتداعت الى خاطري قصة طالما سمعتها في بغداد عن بعض المغامرين الذين يتسلقون قمة «جبل الأمل» المتناهي إلى «وادي الرعب»، ثم يلقون في ذلك الوادي بشرائح اللحم

التي يعلق بها شيء من حجارة الماس، وسرعان ما تنقض قشاعم النسور على تلك الشرائح لتحملها إلى فراخها، ولكنها لا تكاد تصل الى أعشاشها حتى ترتفع ضجة القوم وزعيقهم على قرع الطبول ونفخ الأبواق، فتجفل ذوات المناسر والمخالب، وتطير محلقة مبتعدة عن أعشاشها، ليأتي أولئك الدهاقنة الخبراء يلتقطون الماس ويتركون اللحم..

وهكذا عاد الامل يغمر نفسي بفيض من الحبور والسرور، والسعي السريع في الوادي، أملأ جيوبي وأوعية غذائي من ذلك الحجر الكريم.. ولما شاهدت القطع الكبيرة من اللحم تتهاوى إلى قعر الوادي وفي أماكن شتى، انتقيت لنفسي فخذ عجل عبل شددت به حبل نجاتي وعقدته بزناري، وجلست مخفياً الرأس يجوس في ذهني ألف حساب وحساب..

ولم يطل بي الانتظار إذ اخذت أسراب النسور تحوم متفحصة في جو الوادي، وما هي غير لحظات قلائل حتى انقض نسر قشعم على قطعة اللحم التي ربطت بها نفسي وارتفع بها في الجو وارتفعت معها.. وما هي الا لحظات قلائل



حتى كنت على قمة الجبل وفي عش سيد الطير الذي سرعان ما عاد مرتفعاً في الجو على الزعيق الحاد والجلبة المختلطة الأصوات وقرع الطبول وضرب الصنوج...

ولم تمض غير دقائق معدودات حتى رأيت انساناً واقفاً فوق رأسي وهو يصيح صيحة ذعر واستغراب واستنكار.. صيحة تنتهي بقرار هو افصح تعبير عن خيبة الامل اليأس، ولكنني هتفت به من مربضي بعد ان استعدت انفاسي بعض الشيء:

ـ لا عليك ايها الرجل، على رسلك ايها الاخ، لست بالخاسر ولا المغبون، وإنما أنت الفائز بأثمن ماسة في الدنيا!..

وعقد لسان الرجل، وهو يراني أنهض واقفاً في عش النسر، أنفض عن نفسي وعثاء هذه الرحلة الجوية، وأمد له يدي بماسة خلبت لبه وخطفت بصره، ما إن رآها حتى أخذ ريقه يتحلب تحلب ريق الجوعان أمام مائدة من موائد الجنان.. والتفت التجار حولي، وكان بيننا حديث كثيراً ما تخللته شهقة الدهشة وقبل السلامة وضحك السرور وزفرة الحسرة وصيحة الفوز الكبرى.. وتصميمي على لزوم بيتي متى استقر بي الظعن في ارض الوطن!..

وأمضيت ليلة ليس أهنأ ولا أمتع منها ليلة، وأنا بين ظهراني تجار الماس، أروي لهم أخباري فيتعجبون ويدهشون، واستمع الى أحاديثهم فأعجب ولا أنكر، وإنما تحفزني الكلمة وتهزني الاشارة، حتى كأنني ما كابدت ولا قاسيت، ما تعذبت ولا تألمت، ولم يداخل قلبي القنوط او يخامر ذهني اليأس!..

العودة الى دار السلام

وبعد انقضاء عدة ايام وانا بين هذا الرهط من لفيف التجار الأخيار، على قمة «جبل الامل» المشرف على «وادي الرعب»، جمعنا عدة الرحيل وأخذنا نسير في الطرق الرود والشعاب المتشابكة حتى بلغنا نقطة إرساء مركبهم الشراعي الضخم.. ثم كانت لنا تعريجة على جزيرة دوحها شجر الكافور، ولو استظل فيء كل شجرة مائة شخص لشعروا وكأنهم تحت فسطاط أمير من الأمراء او في خيمة وزير من الوزراء، وكل واحدة منها مستودع حقيقي لذلك الصمغ الابيض



يستقطره الأهالي بفتح كوى صغيرة في جذع الشجرة وفروعها، حتى اذا ما جف منها ذوت ولم تعد تصلح إلا للوقود..

وقد شاهدت في هذه الجزيرة الكركدن او وحيد القرن، وهو أشبه ببناء مرصوص، شديد الشراسة، بالغ الوحشية، مفرط العداوة للفيل إذا ما لقيه أعمل قرنه في أحشائه، وسار به سعيداً بغنمه كما يسير الطفل وهو يحمل العصفور.. ولكن شحم الفيل ودمه يطفئان نور عينيه.. وهنا ينقض الرخ على الاثنين ويحملهما معاً إلى عشه ليغذي بهما فراخه..

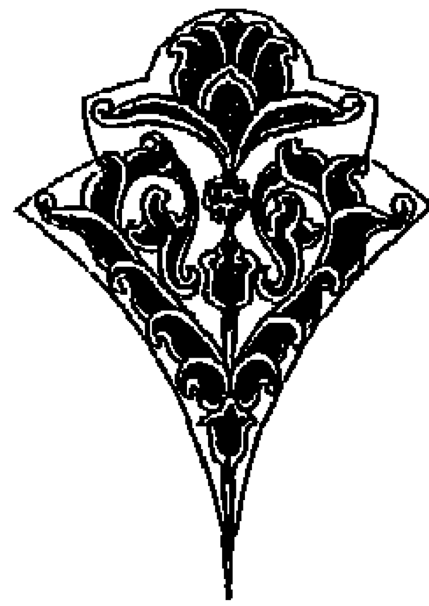
ثم خرجنا من هذه الجزيرة لنعرج على غيرها، ونحط الرحال في ثالثة، منتقلين من ميناء الى ميناء، ومن مرفأ الى غيره، حتى بلغنا البصرة، وخرجت انا في الحال قاصداً بغداد، مقتنعاً من الغنيمة بما ضمت حقيبتي الجلدية وهي تعادل كنوزاً لاحصر لها، وثروة هيهات

ان يستطاع تقديرها..

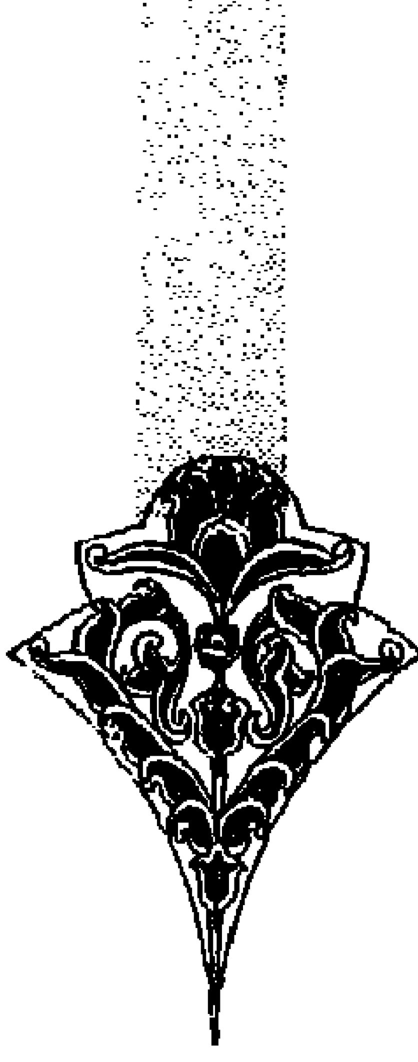
وفي مدينة السلام نسيت كل ما عانيت من مصائب، وما كابدت من الام، وانا اسمع إلى اصوات المستقبلين يرددون على مسمعي آيات الحمد وعبارات الشكر، سعيداً بكفاحي، سعيداً براحتي، آكل هنيئاً واشرب مريئاً.. والآن هل لكم ايها الاخوان بشيء من الطعام؟!..

وعمرت المائدة من جديد على عزف الموسيقى وإنشاد المنشدين، ودفع السندباد التاجر إلى يد السندباد الحمال همياناً نثره بين يدي زوجته لما عاد الى منزله فاذا هو يحتوي مائة مثقال ذهباً..

ونام سندباد الحمال ليلته تلك وهو يمني النفس بسماع اخبار الرحلة الثالثة، وما وراء تلك الاخبار من عجائب واسرار!



الرحلة الثالثة



في بلاد الأقزام والعمالقة

كان مجلس السندباد معقوداً في منزله العامر في ساعة مبكرة هذا اليوم، وكان الرجل المغامر متربعاً في جلسته يحيط به ضيوفه الدائمون من الاخلاء الأوفياء، والأخبار الأصفياء، ممن يشنفون أسماعه بنادر الانباء وممتع الاخبار والامثال السائرة والحكم الرفيعة، محدثين لبقين، ومتكلمين مفوهين، وممن يزدان بهم النادي ويتألقون نجوماً في سماء بغداد.. إلا انهم اثروا الصمت هذه الايام والتزموا السماع، ورضوا مطمئنين بأن يصغوا لمضيفهم وهو يقص عليهم وقائع مغامراته وأحدث جولاته في البر والبحر، والجزر والغابات، تارة يسعى في الارض، وطوراً يكون في الجو، يجوع ليشبع، ويظمأ ليرتوي، ويعرى ليكتسي، ويداني هاوية اليأس لتشرق الحياة في عينيه نوراً باهراً، وتخطر في مخيلته زهراً ناضراً، وتتصدى له الدنيا كعروس فاتنة تجرر أذيالها تيهاً وعجباً، نعمة للنظر وراحة للنفس وسلوى للفؤاد..

واعتدل المغامر الجريء في جلسته، وقد ألقى على كتفيه شملة خفيفة من

الحرير الصيني محلاة بالذهب وموشاة بالخيوط الفضية، واحتفى اول ما احتفى بجليسه الأثير على نفسه حمّال بغداد وسميّه سندباد، باعث ذكرياته من دفائنها ووقائع مغامراته من مكامنها.. وكان كل من في القاعة حواس مرهفة تسمع وتعي، تتوقع المفاجآت فتكون أهول مما قدّرت، وتتحفز لسماع المغامرات فتنجلي اروع مما خمنّت، فيزداد الجمع إعجاباً بالرجل وتقديراً له..

وقال السندباد مطلقاً عقال هذا التوتر الذي خيم على الجو:

التعب من الراحة

بعد ان قضيت حق الشباب بالمغامرة والمخاطرة برحلتي الأولى والثانية، وبعد ان حللت في بغداد، ملت الى الراحة وجنحت الى الهدوء، أزجي الوقت بالتبطل والكسل والخمول، أنام النهار إلا أقله، وأسهر الليل أكثره، أمتري منابع البهجة واللذة، تسير الفرحة أنّى سرت، ويلازمني السرور أنّى حللت، متنقلاً كالفراشة من روضة الى روضة، لا أطالع الأيام إلا افترار الثغر، ولا أودع الليالي إلا على الأمل النضر، لا أدري كيف أنفق، ولا أعرف كيف أبعثر، وكلما جف نبع من منابع ثروتي فاضت ينابيع...

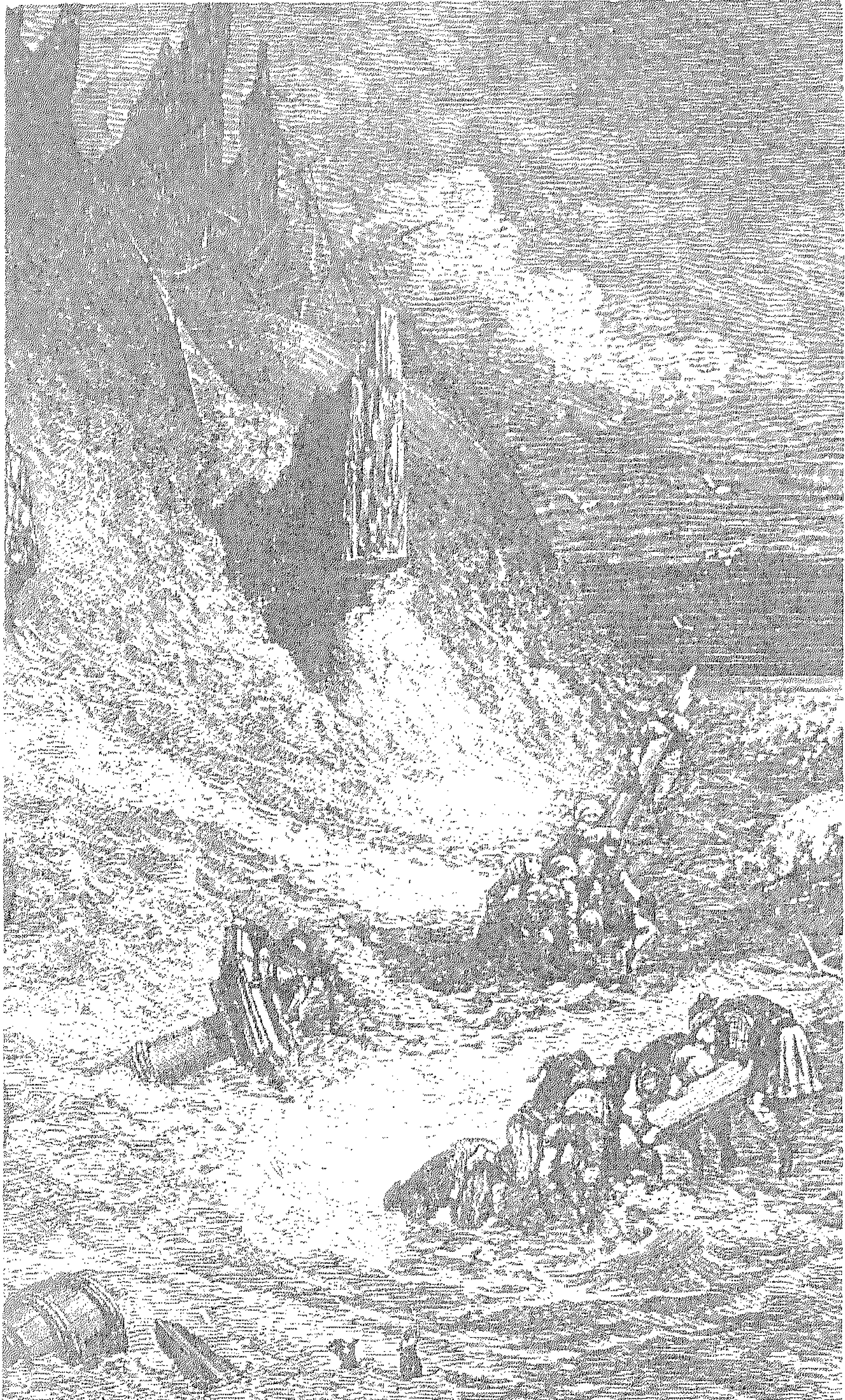
ثم كان يوم تعبت فيه من الراحة وسئمت من حياة السكينة، إذ دب الوهن الى ساعدي والفتور الى عزيمتي، وغدت زهرة شبابي كزهور الشمع والورق لا نضارة فيها ولا فتوّة، بعد أن كنت من الشباب روح العزم والفتوّة والبأس والقوة.. وجسّ الطبيب معصمي فقال باسماً:

ـ لقد أضرّ بالجواد طول الجمام، وبفتى بغداد هذا المقام!..

فحركت هذه الجملة مستنقع خمولي جدولاً للعزم، وبؤرة كسلي بركاناً للعزيمة المتأججة، ورغبة ملحاحاً لركوب أخطار جديدة ومغامرات فريدة.

وكان ان انحدرت الى البصرة مثقلاً بتجارة هي ضروب من نفائس الديار الاسلامية العامرة بكل طرفة فريدة ولؤلؤة يتيمة، وثياب هي وشي الربيع، وسيوف ذهبية وخناجر ذات قبضات عاجية، وتحف يحف بها جلال الوجود..

وكان رفاق السفر من كل فتى أمرد



جريء، مغامر خوّاض للمخاطر، وليث صراع مرهوب الجانب، اشم الأنف صلب القناة لو تطلع في عيني الدهر لصعق الدهر..

وانطلقت بنا المراكب الشراعية تخطر على صفحة البحر، تشق عباب المياه، تطوي المراحل مرحلة إثر مرحلة، وتنتقل بين الممالك مملكة بعد مملكة.. وفي كل مرحلة يسير اليمن بركابنا، نجني الارباح الوفيرة، والمغانم الكبيرة، والخير العميم والسعد أبداً ملازم مقيم...

الجزيرة الملعونة

وذات يوم، فيما كانت السفينة تتراقص على غوارب الموج أملاً ناضراً وأماني غرّاء، اذا بالجو تدلهم جوانبه وتظلم جنباته، وتتسمر السفينة في عرض اليم، لا يخفق لها شراع، ولا يقوى على دفعها مجذاف، كما لو كبلت بقيود الجليد، او استحال البحر الى محيط من الزئبق..

وزاد الجو ادلهاماً وظلمة، واذا بذلك السكون المخيف يتحول فجأة الى عاصف أخذ يطوّح بالسفينة تطويحاً مجنوناً اهوج، لا سبيل فيه الى ضبط الدفة او التمكن من القيادة، حتى غدونا بحالة من الوهن والتسليم اضعف من صغار الطير في ضيق الاقفاص.. تقذف بنا يد التيه في كل فج، وتتناولنا يمين الضايع بكل سبيل، لتتسلمنا بعدها يسار اليأس، ولم يبق من الشراع سوى خرقة ممزقة ومزق مهلهلة، في بقايا سدى لا لحمة لها، ولحمة أنكرت سداها..

وانجلى ظلام إحدى الليالي عن فجر ما كان أبهى منه ولا أسنى، رائق أديم السماء، صافي الماء،ونحن على قيد اذرع قليلة من جزيرة لم نكن قد مررنا بها من قبل، ونظر اليها القبطان ملياً، باحثاً فاحصاً، يتشمم بأنف الثعلب، ويتطلع بعين النسر، ويحس بغريزة الهر، ثم قال بعد لأي:

ـ من الافضل أيها الاخوان أن نعمل جهدنا للابتعاد عن هذه الجزيرة التي اتوجس منها شراً، وأحس بخوف دفين من النزول بها!..

وكم وددنا ان نعمل بنصيحته، وننأى بجانبنا عن هذه الجزيرة اللعينة، ولكن الحالة التي كانت عليها السفينة حملتنا مكرهين على النزول ببرها..

وما ان احتوانا البر، وخلت السفينة من ركابها وبحارتها، حتى هاجمتنا اعداد لا حصر لها من اناس لا ترتفع قامة الواحد منهم شبرين عن الأرض، دميمي الخلقة، قبيحي المنظر، يتوثبون من حولنا، وقد أحدقوا بنا من كل جانب، توثب الشياطين او الجراد، يتوسط جبين كل منهم عين واحدة، لكنها على ضآلة أجسامهم متطلعة نفاذة... ونظرنا نحن إلى هذه الاعداد المتكاثرة فشلت حركتنا، وعقلت الدهشة ألسنتنا عندما رأينا إلى أولئك الأقزام وقد غدوا بعددهم المتكاثف على ظهر السفينة، فجعلوا عاليها سافلها، وهم يبربرون بلغة هيهات ان يفهم واحدنا منها حرفاً او كلمة...

وفي دقائق معدودة كانت الأحمال الموثوقة قطعاً متناثرة، والسفينة ألواحاً وشظايا، على رقصة شيطانية تصل البر بالبحر بحركات غريبة وانعطافات عجيبة. وهكذا غدونا مقطوعين عن العالم، وكل منا خاوي الوفاض صفر اليد، لا نبدي حركة أو نأتي مقاومة، بل لم نتفوه بكلمة، وانما لفنّا الذعر، وهيمن علينا الخوف، وكان جهد الشجاع فينا أن يلوذ بالصمت مرغماً، ويتحمل المشاق صابراً، ويرفع عينيه الى السماء طالباً بقلبه النجاة...

في قبضة العملاق

وفيما نحن بحيرتنا هذه ويأسنا ذاك، نظرنا حولنا فلم نر للأقزام أثراً، كأنما ابتلعهم البحر أو غار بهم البر... وكنا قد أحسسنا بالجوع ينهش بأمعائنا، فلم نر محيصاً عن التوغل في الجزيرة والسير في انحائها، مبتعدين عن الشاطئ، نتغذى ببعض بقول الأرض، نأكل الثمار ونلتهم الخضار، ابقاء على حياتنا ومحافظة على وجودنا، بعد ان كنا الى لحظات قلائل نعيش مشهداً جنائزياً عمومياً، بتمثيلية ليس أهول من فصولها، ولا أوقع على النفس من مناظرها...

وبعد ان أستردنا أنفاسنا وتنفسنا ملء رئاتنا، أخذنا نطوف في الجزيرة علّنا نرى ملجأ نلوذ به، لا سيما وقد تحطمت سفينتنا وتناثرت بضائعنا، ولم نعد نملك شيئا أو نفكر بغير المأوى أو الاهتداء الى وسيلة نخرج بها من هذه الجزيرة اللعينة..

وفيما نحن بطوافنا هذا تراءى لنا عن بعد بناء شاهق متطاول الذرى، رفيع العماد، يخترق مائج السحب في الفضاء،



يسامر النجم ويساهر القمر، فهرعنا اليه يحدونا الأمل ويدفعنا النشاط، حتى اذا ما كنا قبالته وجهاً لوجه، ألفيناه آية بالفن المعماري، جلالا وجمالا، روعة واتقاناً، لكنه على كل هذه العظمة والجلال كان لغزاً مخيفاً رابضاً في قلب هذه الجزيرة، وأردنا القفول والتشتت في أرجاء الجزيرة، ولكن خذلتنا أرجلنا على صوت تناهى الينا من الخارج فيه قصف الرعود وزئير الأسود وتحرك أعماق البراكين، فقعدنا أرضاً لا نأتي بحركة، حابسين الأنفاس غائبين عن الوعي، وبعد قليل صفق الباب منفتحاً بضجة هائلة، وأطل منه وجه مخيف لعملاق هو بانتصابه النخلة المعمرة، أسود اللون مخيف الخلقة، تتوهج في جبينه عين واحدة كأنها شظية من الشمس، ليس كثير الأسنان ولكن كل ناب من أنيابه أحدّ من قرن الكركدن وأمضى، تماثل شفته السفلى فضلة من ذقن لشيخ معمر لم يجر فيها مقص او موسى، أما أذناه فمروحتان متهدلتان تلامسان منكبيه، واما أظافره ـ والعياذ بالله ـ فهي مخالب كواسر الطير وسباع البر...

لا ندري لم داخلتنا الرهبة والخشية إذ وقفنا حياله.. ومع ذلك، وبحب الفضول المتأصل في أعماق الانسان، تجمعت كل قوانا بأكتافنا اليسرى التي اعتمدت بابه الأبنوسي ذا المصراعين، ندفع وندفع، وبعد لأي وجهد بالغين انفتح لنا هذا الباب عن باحة قوراء تنتهي ببناء واسع الأرجاء، هو قصر امبراطوري رائع، فأخذنا نطوف في جنباته ونتملى حجراته، حتى اذا بلغنا البهو الكبير تسمرت أرجلنا وبردت أطرافنا على مشهد جحظت له أعيننا هلعاً ورهبة، إذ كنا أمام أكوام وأكوام وركامات وتلال من بقايا عظام بشرية، وفي ركن من أركان البهو رزمة من السفافيد تقوم بجانب كانون أقل ما يقال فيه انه حلّة منتفخة البطن عن رماد تكاد كل ذرة من ذراته تتحدث عن مأساة نفس بشرية وروح انسانية..

واقبل العملاق يسير بيننا جذلا مختالا، مقهقهاً قهقهة مرعدة، ونحن شبه

أموات لا نأتي بحركة ولا نتنفس إلا بصعوبة..

وكفت حركة العملاق قليلا، وتوقف إرعاده الهائل لحظة، على يده الممدودة التي كانت تدوّم فوق رؤوسنا تدويم الباز الكسر فوق سرب منْ الزرازير، وما هي غير لحظات قليلة حتى توقفت حركتها وانقضت الى الأسفل، وكان ان وقعت أول ما وقعت علي بالذات، وارتفعت في الجو بين أطراف أصابعه يقلّبني بكفه تقليب الجزار إلية الحمل، وكنت ولله الحمد نضواً هزيلاً ليس عليّ سوى الجلد والعظم، ولذلك لم يطل لبثي في تلك الكف القاهرة، فطرحني أرضاً وتناول تاجراً آخر من رقبته، وبعد ان قلبه ما بين اصبعي الباهم والشاهدة رماه أرضاً كذلك، لترتفع على هذه الكف اللعينة رقبة القبطان الذي كان ممتلئاً لحماً، ومكتنزاً شحماً، وقهقة العملاق قهقهة الرضا والغبطة والفوز بالغنيمة المرجوة..

رجال على المشواة

ولبث القبطان المسكين لحظات قلائل وهو يتقلب على كف العملاق الهائلة، يتلاعب به تلاعب الهر بالفأرة، يقهقه ويطيل القهقهة، مكشراً عن عصل أنيابه، محدداً حادّ أظافره، مشبعاً في نفسه غريزة القتل قبل مباشرته، ونحن جميعاً نفوس جازعة وعيون مسمرة على تلك الكف القاهرة الجبارة، وبلغ منا الخوف مبلغه والهلع نهايته، حين رأينا أحد السفافيد ينفذ في جسم القبطان ثم يقلب على المشواة..

وغبنا جميعاً عن الوعي ونحن نرى قائد سفينتنا وقد استحال إلى شواء أخذ سبيله إلى جوف العملاق، يتنعم بالتهامه ويتلذذ بمضغه، حتى اذا بلغ وطره ـ وكان يلهث لهاثاً هو عصف الرياح ـ اوى الى مكانه تحت سقف البهو، واضطجع هناك يشخر شخيراً هو الاعصار الشديد.. ونحن نتزاحم متلاصقين، يدفع بعضنا البعض الآخر رهبة وفزعاً، خوفاً وهلعاً، نضطرب اشد الاضطراب، ونتقلب بين براثن العذاب، لا نعرف للرقاد معنى، ولا للهدوء كنهاً، حتى لاح الفجر وأخذت

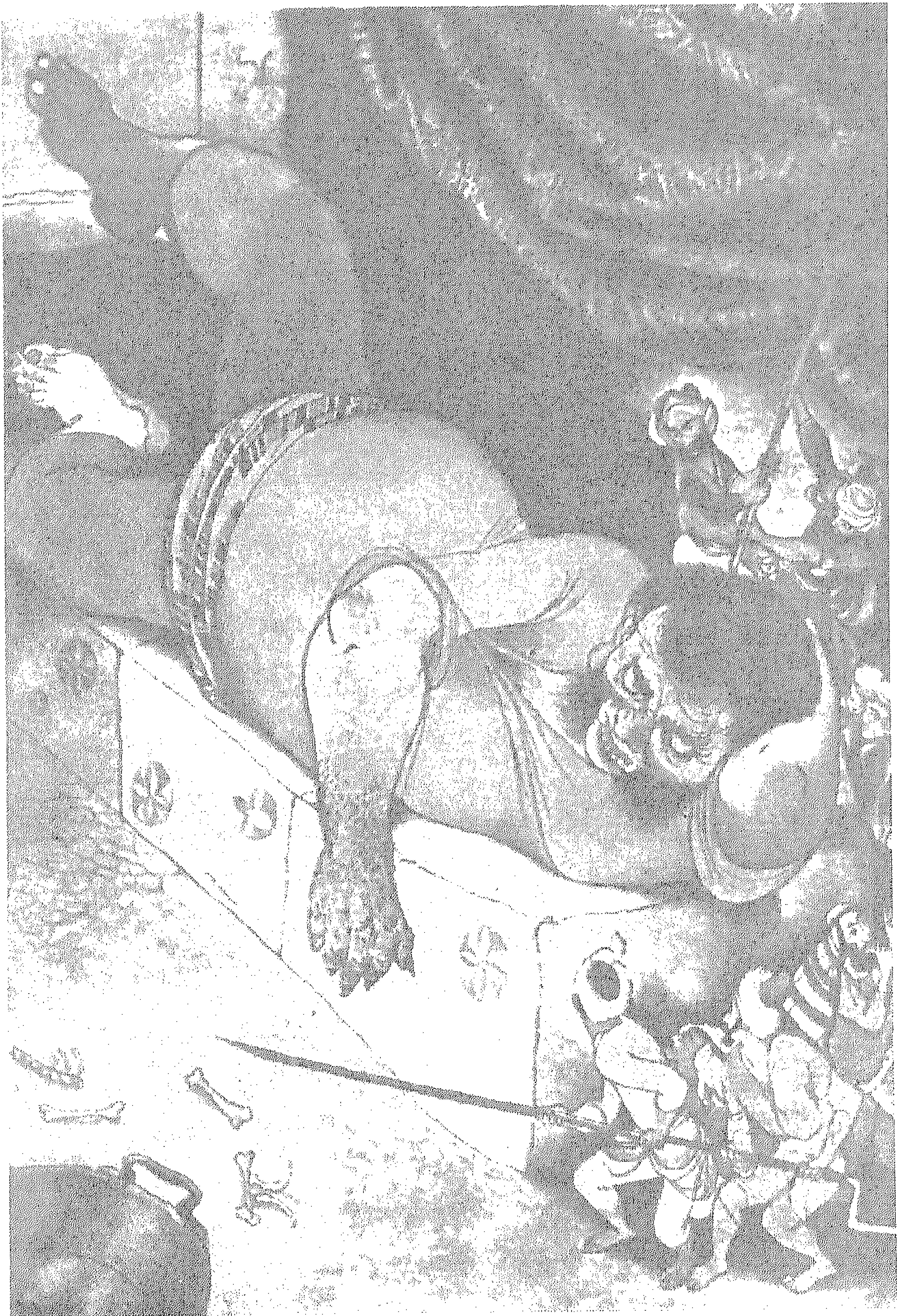
خيوط الضياء تمحو آية الظلماء، واذا بالعملاق ينتصب فوق رؤوسنا ويتمطى مستعيداً نشاطه، معربداً مبربراً، مكشراً في وجوهنا تكشيرات مخيفة، آتياً حركات واشارات ضلّت فيها افهامنا وغدونا شبه السائمة، ثم خرج مقهقهاً وخلّفنا للهول والفزع والهلع والجزع..

وكان ذلك اليوم اسود قاتماً في انظارنا، والجو مكفهراً في عيوننا، نسعى متمايلين على انفسنا، نجوس ارجاء الجزيرة عن غير وعي، ونأكل من بقولها بغير رغبة، وكا ما نأتيه اشارات بلهاء، في ابتسامات شوهاء، حتى إذا مال ميزان النهار لم نر انفسنا إلا ونحن نسير مقهورين بقوة خفية الى ذلك البناء الملعون.. ودخل علينا العملاق، واعاد مأساة امس..

وكان عددنا يتناقص يوماً بعد يوم، ويرتفع واحدنا إثر الآخر على صدر المشواة، ليأخذ سبيله الى جوفه الحوتي، يلتهمه التهاماً ويزدرده ازدراداً، ونحن نزداد شحوباً وهزالا، منطوين على انفسنا، لا يعرف واحدنا متى سيرد مورد الهلكة..

النجاة

وقد حاول كثير منا الانتحار هرباً من هذا المصير المفجع، وكنت أنا على رأس المؤيدين لهذة الفكرة، غير انني ما ان رميت بنفسي في اليم بقصد اغراق ذاتي إلا وشعرت بالغشاوة تنزاح عن عيني، فأسرعت بالخروج من الماء وأنا أصيح هاتفاً بأخواني: «فلنقتل العملاق.. فلنقتل العملاق..» على حين جلس باقي الاخوان في اماكنهم وهم يضحكون مني مسفّهين رأيي وهم يرددون هازئين: «لنقتل العملاق!..» ولم استطع ان اتغلب على ضعفهم إلا بأن اقنع بعض البحارة بالاغتسال بماء البحر الذي لم يكن يغطس فيه احدهم الا ويعود مسرعاً الى البر وهو يقول جاداً: «لنقتل العملاق.. لنقتل العملاق..» وهكذا حتى لم يبقَ صوت واحد إلا وهو يردد هذه العبارة المباركة بعد ان اغتسلوا بماء اليم وزالت الغشاوة عن أعينهم!..



وعدنا مبكرين الى القصر المشؤوم، لا ندري أينا سيكون القربان الذي سينقذ اخوانه، وكبش المحرقة الأخير.. ولا أخفي عليكم ايها الأخوان الأفياء والأصدقاء والأجلاء، ان كف اللعين قد حومّت فوق رأسي غير مرة، اذ غدونا جميعاً أنضاء هزال ونحول، وهو يصيح متميزاً من الغيظ، حانقاً حاقداً، مرعداً مزبداً يطلب الضحية المكتنزة، ونحن جلد على عظم، لا يربطنا بالحياة إلا خيط واه أضعف من خيط العنكبوت، ويد العملاق تدوّم فوق رؤوسنا، حتى اذا اختطف واحداً من بيننا ذهلنا عن الوجود، وأغمضنا أعيننا وأطلقنا للمرة الأولى صيحة الذعر والألم والخوف، فكشر اللعين في وجوهنا بعينه الوحيدة، وهي تقدح شرراً وتتلظى جمراً، ولم تهدأ ثورته إلا بعد ان ثقلت معدته ونام نومه العميق الشبيه بالموت..

ويشاء حسن الطالع ان تكون تلك الليلة مضيئة مقمرة، وان ينام اللعين في الباحة المكشوفة يغط غطيطاً اشبه ما يكون بخوار الثور الهائج، وهببنا من مراقدنا، ولم يكن النوم قد عرف سبيلا إلى اجفاننا، وبادرنا أول ما بادرنا إلى أخذ سفود فأحمينا طرفه إلى درجة الاحمرار، ثم اقتربنا منه ووقفنا قبال جبهته، وأحكمنا التصويب.. وبكل ما فينا من قوة وعزم، غرزنا ذلك السفود في عين اللعين.. فصاح صيحة اهتزت لها اركان البناء، وهبّ واقفاً على قدميه، ولكنه كان أعمى.. وحاول ان يطالنا إلا أننا عرفنا كيف نتخلص من يديه الدائرتين في الهواء على لا شيء.. وانسللنا خارجين من ذلك البناء والعملاق اللعين يدور فيه متخبطاً متعثراً، قائماً قاعداً، وقد استطعنا ان نغلق الباب ونحكم ايصاده، ونركض متفرقين في انحاء الجزيرة، وان كان كل منا ينشد الشاطىء، والعملاق اللعين لا يكف عن صراخه الداوي المتواصل الذي كان بمثابة السياط الحادة الوقع على نفوسنا..

ولما بلغنا الشاطىء بادرنا الى ركوب الأفلاك الصغيرة التي كنا قد

صنعناها استعداداً لهذه الساعة، ولكننا ما كدنا نبتعد قليلا عن ساحل الجزيرة حتى وقف على طرفها جمع من المتوحشين بينهم عدونا اللعين وقد سنده عملاقان اثنان عن يمينه ويساره، وأخذ هؤلاء الوحوش يرموننا بالحجارة الهائلة ونحن نجدّف قدر استطاعتنا، نتبادل التجذيف كلما كلّ ساعد حلّ محلّه ساعد آخر.. ومع ذلك نظرت من حولي فألفيت أفلاك اخواننا تطفو متناثرة على سطح البحر، وقد غرق عنها أربابها، ولم يبق سالماً سوى الفلك الذي يقلني واثنين من البحارة معي..

في فم الثعبان

ولم يوقفنا الصياح المنذر أو طلب النجدة المسترحم، وانما واصلنا التجذيف حتى غدونا في عرض البحر، وفي مأمن من مرمى الحجارة، وغابت نهائياً صيحات النذير التي كانت تلاحقنا، ولم نر أمامنا من سبيل غير مواصلة التجديف، وقطع المراحل واحدة أثر الثانية في عباب هذا البحر اللامتناهي، نصل الليل بالنهار، واشراق الشمس ببزوغ القمر، نهتدي بالنجم طوراً وبحركة الشمس حيناً، نغالب نوازع اليأس، ونتغلب على عوامل القنوط، لا يعرف الخور سبيلا الى سواعدنا، أو الضعف طريقاً الى نفوسنا، حتى لاحت لنا مع إشراقة اليوم الثاني عشر من خروجنا من جزيرة الأقزام والعمالقة، جزيرة جاثمة في قلب المحيط حلة زاهية من ناضر الخضرة وباسق الأشجار..

وحينئذ فقط شعرنا بالتعب، وبالرغبة في الاستراحة، فيممنا شطر اليابسة مواصلين التجذيف، حتى بلغنا الجزيرة وارتقينا أرضها، واستلقينا على ظهورنا غائبين عن الوعي..

ولما جنحت الشمس الى المغيب، وتناثرت في الأفق خيوط الظلام الأولى التي أخذت تنتشر كالمظلة على الوجود ماسحة آية الضياء، استيقظنا مذعورين على فحيح هائل كأنه النفخ في كور حدّاد.. واذا بي أرى أحد رفيقي يرتفع عن الارض وهو يصيح ويولول مستغيثاً

مستجيراً، وقد أطبق عليه فم ثعبان ما كنت أتصور أضخم منه، حتى انه لو مدّد على دجلة لوصل طرفي بغداد أحدهما بالآخر جسراً يسير عليه الراكب والراجل... وشيئا فشيئاً أخذ يتلاشى صياح رفيقنا واستجارته، وبعد انقضاء دقائق معدودة تَبِعَتْ رِجْلا المسكين رأسه انزلاقاً الى جوف الثعبان المخيف الذي أدار رأسه بكل هدوء وقفل عائداً من حيث أتى متغلغلا في أعماق الجزيرة، فلم أستطع إلا أن أجأر بالدعاء الى رب السماء: «رب رحمتك، لقد كفانا ما ذقناه من ويلات وأخطار، وأهوال ومصائب، وشدة وبلاء، فان كتب لنا البقاء فخفف من آلامنا، وان كتب لنا الموت فعجّل علينا، فالانتهاء من العذاب رحمة، وانقضاء الشقاء بالموت راحة!»

وأشرت الى صديقي الذي عقد لسانه، ان يتسلق معي إحدى الأشجار لنقضي ليلتنا تلك، ولكنه كان جامداً جمود الحجر لا يبدي ولا يعيد، فانهلت على وجهه صفعاً رحمة به وعطفاً عليه،



وما هي غير فترة وجيزة حتى حلّت عقدة لسانه وأكب علي معانقاً يمطرني بقبلات الشكر والامتنان..

مشيئة القدر

وبتنا ليلتنا تلك على شجرة عالية كانت خير عاصم لنا من هوام هذه الأرض وحشراتها وزواحفها التي كانت تتلاعب في ضوء القمر، ونحن ننظر اليها واجفاً قلبانا هالعاً فؤادانا..

ومع اشراقة أول خيط من نور الشمس انحدرنا أرضاً وأتخذنا سبيلنا الى الشاطىء، ونحن منهوكا القوى مهدودا العزم، متيقنان عميق اليقين ـ حالما وضعنا أرجلنا في أرض الزورق الصغير ـ بأننا نخرج من فم الموت وجوف العدم، وطلبت الى رفيقي أن يجذف مبتعداً عن الجزيرة كيفما اتفق، تاركين مصيرنا لمشيئة الذي لا راد لارادته ولا دافع لحوله وطوله، وكان ان احتوانا الماء من كل مكان، تدفعنا الرياح طوراً يميناً وتارة شمالا، وحيناً الى الأمام



وأحياناً الى الوراء، ونحن ابداً لسان لاهج بذكر الله والاعتماد على الله، موقنين في اعماقنا بان الاله الرحيم الذي كتب لنا السلامة من غمرة هذه الأهوال والأخطار، لا بد من ان يشملنا بلطيف عنايته وآية رحمته، وينتشلنا من هوة الضياع التي نحن فيها..

وفيما كنا نتبادل غمس المجذاف في ذلك اللامتناهي من متسع المياه، ونفسانا مسرح لشتى الانفعالات ومختلف الأحاسيس، اذا بالأفق ينفرج عن شراع يتهادى على صفحة الماء وكله زهو وخيلاء، وزاد في اشراق نجم سعادتنا ان المركب كان آخذا سمت الطريق نحونا، فوقفنا متعانقين ثم اخذنا نرقص في القارب حيناً ونلّوح بمنديلي عمامتينا حيناً آخر، مزغردين زغردة النساء، طافرين طفور الأطفال، حتى اذا حاذانا المركب قفزنا اليه فرحين مهللين..

ودارت بيننا وبين البحارة أحاديث ممتعة، واخبار مروعة، وقصص وحكايات، والبحارة فرحون بنا، والتجار مغتبطون بوجودنا، ولم يمض يوم أو يومان إلا وغدونا فردين في تلك الأسرة الكبيرة، وكان رفيقي من متقدمي البحارة يشاركهم في أعمالهم، ويأخذ نصيبه من متاعبهم، وأنا أصغي الى التجار وهم يحدثونني عن رحلاتهم ومغامراتهم وأرباحهم وخسائرهم..

ورسونا في أحدى المرات بميناء كبير من موانىء الهند، وأقبل عليّ الربان وتفرس بي قليلا، قم قال لي:

ـ اعلم ايها الاخ الكريم ان في مستودعاتي بضائع لتاجر ركب معي مرة ثم غاب في ظروف غامضة ما عرفت حقيقتها ولا وقفت على بيّنتها، وها اني أدفعها اليك لتبيعها في اسواق الهند، فتستفيد أنت بأرباحها، ويفيد ورثة الفقيد بقيمتها، فأكون انا قد أديت الأمانة وتكون انت قد أصبت ربحاً وفيراً وخيراً كثيراً..

ـ وما اسم هذا التاجر الذي تخلف عن بضاعته يا أخي؟..

ـ سندباد من اهالي بغداد..

ـ إذن لقد ردّ الحق لنصابه والبضاعة لأهلها، فأنا السندباد ومن أشهر سكان بغداد..

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.. طلبنا لك الغنم في الدنيا فطلبت لنا الغرم في الآخرة.. وطلبنا لك الكسب الحلال وتأبى إلا الربح الحرام.. اقنع بالقليل يكافئك الله بالكثير..

ـ على رسلك يا أخي، لا تظن بي الشر، فبعض الظن إثم، والبضاعة التي في مستودعاتك تضم الأقشمة والسيوف والطرائف، ولون طرود الأقشمة الأصفر، وهي مشدودة بحبال الليف ومخيطة بخيوط قطنية، واما طرود السيوف البغدادية والخناجر اليمنية فمودعة بأربعة صناديق مكعبة ومكتوب اسمي عليها بالحبر الصيني، والطرائف..

ـ كفى، كفى يا أخي.. فمالك حلال وقد صانه الله بيد أمينة فالحمد لله والشكر على آلائه..

وأقبل عليّ التجار فرحين مهنئين، ولم يلبث ان برز واحد منهم كان يطيل بي التحديق وهو يقول:

ـ ألست ملك الماس يا سندباد؟.. ألست الذي وهبني ما وهب على «جبل الرجاء» المشرف على «وادي الرعب»؟..

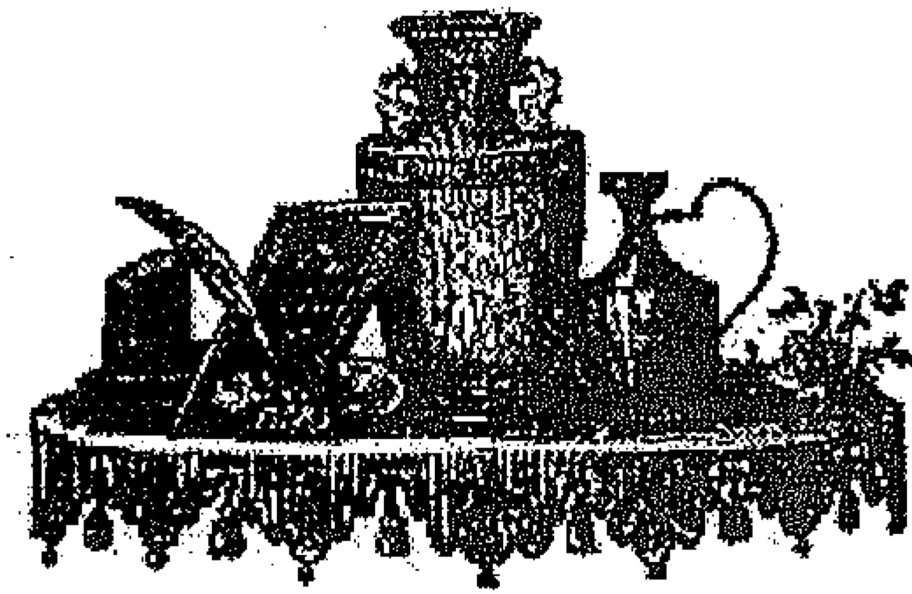
ـ كان ذلك في رحلتي الثانية واني أعيش الآن أحداث الرحلة الثالثة..

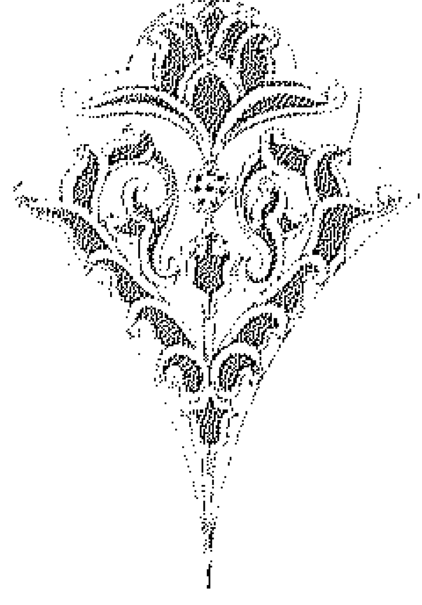
ـ أبقاك الله للمغامرة روحاً، وللمجابهة الأخطار رائداً، ولركوب الأهوال شعاراً، فقصصك عجيبة ووقائعك غريبة..

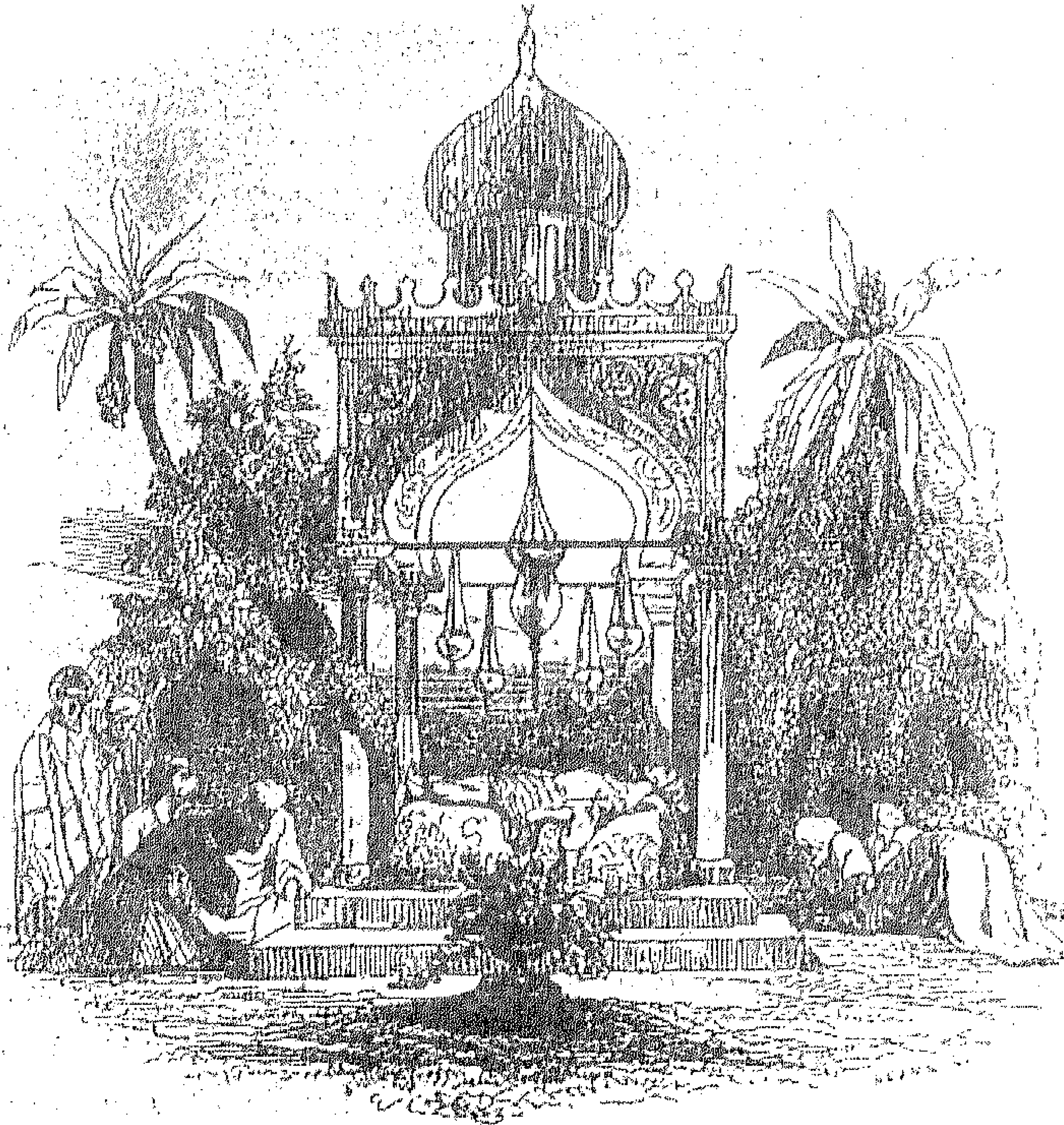
ـ لقد خرجت والله هذه المرة ليس طلباً للربح وانما دفعاً للسأم والملل... وعانقني التجار من جديد، ونزلنا الى المرفأ الهندي فبعنا واشترينا، حتى اذا قضينا أوطارنا تابعنا رحلاتنا وأسفارنا، متنقلين من بلد الى بلد، ومن مملكة الى غيرها حتى كنا بالبصرة، وحتى كنت انا في بغداد، يسير بركابي الجاه العريض والثروة الضخمة والسمعة الرفيعة، فامتلكت الضياع وشيدت القصور

وعشت آلياً على نفسي ألا أفارق وطني، ولكن كان مقدراً لي أن أجوب بلاداً وأشاهد عباداً، وهذا ما سيكون حديثي غداً عن رحلتي الرابعة، وطابت الآن ليلتكم..

ولم ينس السندباد التاجر أن ينفح السندباد الحمال كيساً من النقود فيه مائة دينار، وهو يودعه ويدعوه لسماع مغامرات الرحلة الرابعة..







مع أكلة اللحوم البشرية

كان جو الجلسة هذه المرة مثقلا يلفه السكون الشامل فلا حركة ولا نأمة، لا غناء ولا موسيقى.. وكان السندباد جالساً منقبض الصدر مكروب النفس، كأنما هو يدفع عن مخيلته شبح كابوس مرعب أثقل صدره وضيق عليه أنفاسه، عابساً على غير عادته، منقبضاً برغم ارادته، يعالج صراعاً داخلياً محموماً يكاد يمزقه تمزيقاً، فتطير نفسه شعاعاً، ويطوح بلبه في متاهات مظلمة يستبعد

ذكراها ويود لو تناسى معناها..

وانصبت العيون كلها على سندباد الحمال تنتظر منه ان يحرك سميّه للكلام... وكان حمال بغداد عند حسن ظن الظانين به المؤملين بفطنته، فتنحنح في مكانه قليلا ثم قال بصوت رقيق فيه دماثة ولين جانب وتواضع مفرط:

ـ نحن على موعدنا معك يا أخا الكفاح والجلاد وزينة بغداد.

ـ أهلا بأخي الصغير، وباعث ذكرياتي من الرقاد، الصبور تحت أعباء العباد، سميّي سندباد... ولكن احداث هذه الرحلة ليست عظيمة بوقائعها إلا انها شديدة الأثر في نفسي. باقية فيها وخزة ضمير ويقظة وجدان.. لكم حاولت ان اتناساها واطمس معالمها، لكنها ان طمست عن اعين الناس فربّ الناس حافظ اياها بسجل اعمالي، مذكرني بها يوم النشور، يوم لا مهرب او تناسي او مناص من الحساب، ولعل اعترافي بها يضعف من بلواي، ويخفف من اعباء همومي بها واحتفالي الدائم بأحداثها..

البحث عن عروس

بعد قفولي الغانم من رحلتي الثالثة التي أرتفعت بصيتي وسمت باسمي وارتقت بنجمي، أكببت كعادتي على الانصراف إلى اللهو، وترك قيادة النفس للمسرات.. وجلست يوماً في مقري القائم بجانب قصور البرامكة العظام، وأنا أحدث نفسي: «ما هذا المقام؟ لقد جبت يا سندباد بلاد والهند السند، وفارس والسودان، وجزر ما وراء البحار، وبلاد الشمس المشرقة، وأصقاع الجليد المخيفة، وتعرفت بالسمراء الناعمة، والبيضاء البضة، والصفراء الرقيقة، والسوداء الضاجة بالحياة، ومع ذلك لم تتخذ لك رفيقة لحياتك وحليلة تحس بشعورك وتنظر بعينيك، اذن فالبدار البدار يا جوّاب القفار وراكب البحار...»

وقد شئت هذه المرة أن أبدأ رحلتي براً، ولذلك شددت حزامي على وسطي وهو مفعم بالنقود الذهبية واللآلىء

الغالية والأحجار الكريمة، ميمماً شطر فارس وأصقاع الهند، أتنقل في البلاد وأدرس اخلاق العباد، وأتعرف إلى مختلف البلدان والأمصار، حتى انتهيت إلى شاطىء من شطآن الهند، فرأيت سفينة عربية راسية فيه، فسألت عن الربان فجاء مرحباً بي مؤهلا بقدومي، فسألته عن وجهة سيره فقال لي:

ـ سياحة في بلاد الله الواسعة تنتهي بالبصرة مرفأ بلاد العرب وزينة ثغور الاسلام.

فقلت له: هبني اذن من ركابك، لا أبغي تجارة ولا كسباً، وانما الفرجة والمتعة و... أشياء في صدري!..

فضحك البحار المدرب والرجل المحنك، وقال وهو يربت على كتفي:

ـ ولك فيها مآرب أخرى!..

فأجبته مجارياً إياه بضحكة:

ـ ان ذلك كذلك..

وانطلقت بنا السفينة تمخر عباب البحر على أغاني البحارة وأهازيجهم، وفرحهم الموصول، ورقصهم غير المنقطع، يبادلون التجار ظريف النكات وطريف الحكايا، وسيرة كل منهم تاريخ حافل وسجل مليء بالأحداث والوقائع والمغامرات، يقضون الليالي بحديث السمر، والاصباح باستعراض الذكريات الملاح، والنهار المشمس بمشرق آمالهم وبارق أمانيهم، يعيشون الأحلام العذاب، ويتساقون كؤوس الرغاب.. والتجار يعرفون بالتجربة والمراس كيف تؤكل الكتف، وأين يكون المغنم، وأنىّ يجب دفع المغرم، يبيعون ويشترون، يكسبون ولا يخسرون، وكم أعرضوا عن بضاعة ونفوسهم تتلظى إلى شراء عشر معشارها بأضعاف أثمانها المعروضة، يفتشون عن غيرها ولا يرغبون إلا بها، احتيالا على العيش وطلباً للربح.. وانا في كل ذلك العين المراقبة، والقلب الواعي، والذاكرة الحافظة، أشاهد ولا أتكلم، أحضر المساومة ولا اشترك فيها، راغباً بتعميق خبرتي وإغناء تجربتي، ممارساً

في ذلك متعة أين منها متعة جمع المال وامتلاك العقار، ورنين الدينار على الدينار!..

العاصفة

وذات يوم فيما كانت السفينة سارية بالآمال العراض والأماني الكبيرة، وعلى



بسمة الرجاء، وبحلم البحارة بالثروة العظيمة، والتجار بكل غنم وغنيمة، حتى ليكلّ الخيال عن الاحاطة بتلك الآمال، والطبيعة همس منغوم، ريحاً رخية وشمساً بهية، وانغماس المجذاف في ذلك الماء الساجي كأنه ترديد أنغام الوتر أو تغريد الطير، وأنا راض سعيد بقسمتي من هذه المغانم المعنوية ترفعاً عن المطالب الدنيوية، حتى كدت انسى الغرض الذي خرجت من اجله، مفارقاً اهلي ودياري وأقربائي وزواري.. اذا بالطبيعة يكفهر وجهها وتخرج من طورها، فترمينا برياح عاتية تتلاعب بالشراع، وتزأر ما بيننا زئير الاسود في يوم منكود، ثم ترمي برواقها المظلم تلف جوانب الأفق الذي ما زال يتدانى ويتدانى بأطرافها حتى حسبنا الدنيا كلها غرفة مظلمة صفيقة الجدران لا نقدر على التحرك فيها، فغدونا والعميان سواء بسواء، وانقلب غناء البحارة وطرب التجار واحاديث السمر، إلى دعاء موصول يصدر عن قلوب مكلومة وأفئدة مغمومة نخشع لله مستغفرين اياه بسائر حواسنا ومختلف مشاعرنا، إن كلّت ألسنتنا عنها خفق الفؤاد ووجيب القلب وتبكيت الضمير ويقظة الوجدان.. غير ان الطبيعة كانت عن صلواتنا وأدعيتنا في شغل شاغل، يزداد اكفهرارها اكفهراراً، وانسكاب دموع سمائها امطاراً، تعربد بلغة الوعد، وتنذر بوميض البرق، لتعود إلى مسود رواقها ومدلهم ظلماتها، حتى تقطعت بنا اسباب الأمل على تقطع اسباب السفينة وتمزق أشرعتها وتحطم صواريها، ولم نشعر إلا والجارية السعيدة بالأمس، السارية على الايقاع المنغوم والكلم المنظوم، تتحطم بدداً على صخرة عاتية نافرة على صدر المحيط، ناهدة بتحد، صابرة على صفعات الماء، صبراً فيه كل البؤس والشقاء والبلاء!..

وغاب اكثر التجار في عباب الموج، فغرقوا وغرقت معهم آمالهم الضخام وأمانيهم الجسام، وكان من حسن طالعي واشراق سعد بعض البحارة ان امتطينا لوحاً خشبياً كان لنا بمثابة طوق النجاة،

وتركنا مصيرنا للاقدار تدفعنا بتيارها العنيف... وفيما نحن في خضم هذه المتاهة والخبط على غير هدى، اذا بجانب الافق الشرقي ينجلي عن بر زاخر بالحياة رافل بناضر الخضرة، فشددنا من عزائمنا اندفاعاً بالسباحة، حتى ان بعضنا شاء ان يستبق الآخرين، فترك اللوح الخشبي وأخذ يسبح منفرداً طلباً للشاطىء بأسرع وقت ممكن..

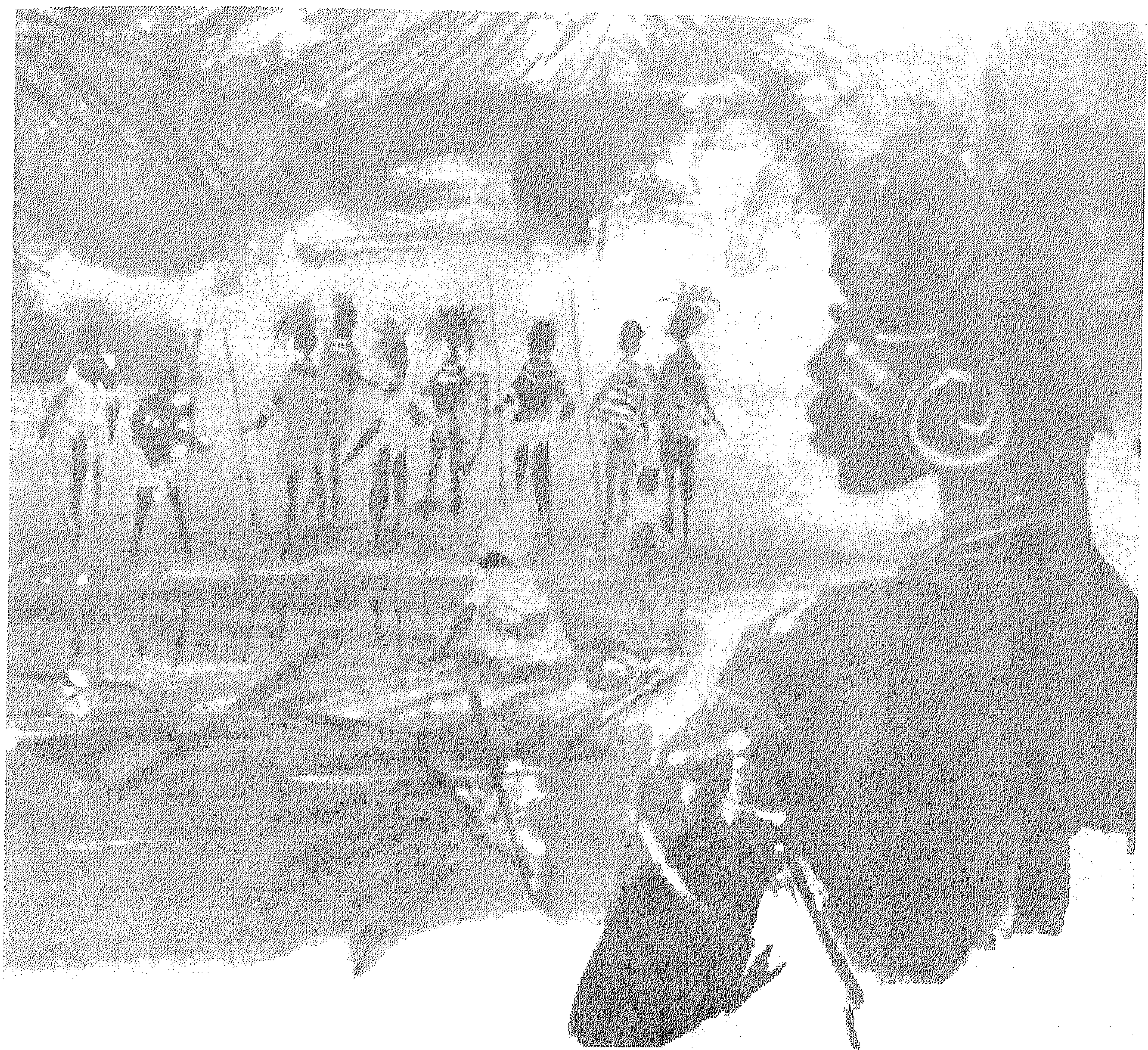
الفردوس الصغير

واحتوتنا جزيرة هي فردوس مصغر، تضج بكل آيات الحياة، كأنها بسمة الحياة مطبوعة على الأرض في غمار هذا المحيط، شجرة زاهية بثمارها، وينبوعاً متدفقاً بعذب مياهه، وزهرة رقّافة بالحسن، في غابة كثيفة يمتد وراءها مرج مونق بأفانين الورود تمتد بامتداد الطرف بحراً زاهي الألوان عبقري التلوين، يرتاح اليه النظر وتسر النفس ويهدأ الخاطر...

وما ان تغلغلنا في قلب هذا المتسع اللامتناهي من الخضرة، حتى عاود اجسامنا النشاط ونفوسنا الرجاء، فتجددت قوانا وتنفسنا نسيم الأمل وتنشقنا أريج الأماني، نستريح حيناً ونسير متفرجين احياناً، نأكل الثمار الشهية ونعب من هذا الماء السلسبيل، متوغلين في هذه الأرض الخلاء ما وسعنا التوغل، مبتعدين عن البحر اللعين جهد طاقتنا، لأننا موقنون في اعماقنا بأنه لا بد من ان ننتهي الى مدينة مأهولة او قرية مسكونة نستدل من قاطنيها على مركزنا من العالم وبعد وطننا والسبيل اليه...

وكان لنا ما قدّرنا، فقد صادفنا في طريقنا بشراً ولكن سود البشرة غلاظ القلوب قساة الأفئدة، يتطاير الشرر من أعينهم والرغبة في الولوغ بالدم.. حتى لكأن واحدهم ناباً حاداً لا غير، ومخلباً ناشباً فقط..

وأطبق هؤلاء الأفظاظ علينا، واستاقونا امامهم كما لو كنا من الغنم تدوم فوق رأسه عصا الراعي الظالمة، راع فيه ناب الذئب وشراسة النمر وقوة



بأس الأسد، وان شمت فيه اللين كان لين الأفعى السامة القاتلة !..

وكان من المؤسف ان اخواني ورفاق سفري قد غرّهم من القوم ما اظهروه لهم من لين مكذوب، ودماثة في الخلق مصطنعة، فلم يقدروا أن يروا إلى نصل الخنجر المسموم خلف طاقات الزهور المغلفة بها ايديهم، وطفقوا وقد اخذتهم الغفلة يتحدثون عن طيب هؤلاء الناس، على حين ظل الزنوج يسيرون بنا حتى وصلوا بنا الى رئيس قبيلتهم، فرحب بنا واحتفى بقدومنا، ولكنني في قرارة

نفسي لم أكن مطمئناً إلى عذب كلماته ولطيف عباراته، إذ رأيته يغمز بطرف احد اتباعه، ويشير اليه اشارة ذات مغزى، فاحتطت لنفسي وغدوت أشد حذراً مما كنت...

قطيع من البشر

وأخذ ابناء القبيلة يكثرون من الذهاب والاياب، وكلهم حركة ونشاط في اقبالهم وادبارهم، وحضورهم وانصرافهم، وسعيهم ما بيننا وطوافهم بنا، والهمس بكلمات والأتيان باشارات، بينما لبث جماعة منهم فوق رؤوسنا وكل منهم ديدبان ساهر العين متيقظ الحواس، يرمقوننا بعيون النسور ويتشممونا من بعيد بأنوف الثعالب!...

ثم أقبل جماعة منهم وهم يحملون الاطباق والصواني، والحلل الكبيرة، وكلها مفعمة بأطيب المآكل وأجود الثمار، وبينها ثمرة غريبة ما عرفت لها من قبل شكلا ولا طعمت لها مذاقاً، وكان الجوع قد أخذ ينهش أمعاء إخوان السفر ورفاق الطريق، فاقبلوا على الأكل يلتهمونه التهاماً، والفاكهة يقضمونها قضماً، ولا سيما تلك الثمرة التي تغري النظر وتتحلب الريق، وتدعو الشبعان إلى ان يطعم منها ويطعم، فكيف بالجوعان والغرثان، وفي طعمها على ما وصفها لي صاحب كنت بجانبه خلاصة رحيق الفواكه ونكهة الخضار ولذيذ طعم اللحوم...

أما أنا فقد بقيت متحفظاً حتى النهاية، فلم أطعم شيئاً من الطبخ، وانما اكتفيت بشيء من الفاكهة التي لا تؤكل إلا بعد القشر، واستعملت سكيني الصغير بتؤدة وصبر عجيبين، مدعياً انحراف المزاج وتوعك الصحة، في حين كنت طوال فترة الوليمة عيناً يقظة وحساً متحفزاً وشعوراً متوجساً بالكارثة..

وكان ما توقعت به وحدست، فلم ينقض وقت الوليمة حتى رأيت بعض اخواني قد خرجوا عن رزانتهم ووقارهم، ثم أخذوا يتغامزون ويتضاحكون ويتهارشون، يدغدغ بعضهم خواصر

البعض الآخر، وقد أغربوا في الضحك واستمرار المزاح السخيف وتبادل الألفاظ المستهجنة والعبارات النابية، ليغرقوا من جديد في الضحك، او ليرقصوا او يتخلعوا، فلم اجد مناصاً من مجاراتهم فيما هم فيه، إذ رأيت من العقل ان اجاري المجانين في جنونهم وإلا مزقني اخواني قبل ان تجري على عنقي سكين أعدائي..

وفي صبيحة اليوم التالي كان كل اخوان سفري قطيعاً من السائمة في خلق بشرية ووجوه انسانية، قد ضل عنهم صوابهم وطاشت احلامهم وفقدوا ملكة التمييز، يصدعون بما يؤمرون، ويجرون ولا يدرون اين يقصدون، وقد أوكل عليهم - وأنا بينهم - راع مسن أخذ يسرح بنا كما يسرح الراعي بقطيعه، يهش علينا بعصاه فيتواثب اخواني المساكين هنا



وهناك وهم يأكلون ضروباً من بقول الارض لا اعرف لها اسماً، وكلما امعنوا في الأكل منها سمنوا بصورة عجيبة، بينما كنت ازداد هزالا وضموراً، لأنني اعلم علم اليقين ان وراء الابتسامة الناعمة نصل السكين اللعين...

الهرب

ومع الأيام كان عدد اخواني يتناقص، والمساكين البلهاء يزدادون سمنة، يكتنزون لحماً ويطبقون شحماً، على عكس ما غدوت عليه إذ صرت جلداً على عظم، لا يربطني بالحياة إلا خيط أوهى من حبل العنكبوت، لذلك لم يعرني القوم اي اهتمام بل حسبوا أن بي علة قاتلة ومرضاً خبيثاً، وان لحمي ان دخل اجوافهم قصّر بأمد حياتهم، فلم يعودوا يهتمون بشأني او يهمهم مصيري، وهكذا نعمت بالحرية ولم تعد عيونهم تترصد حركاتي أو تحصي عليّ سكناتي، فاهتبلت تلك الفرصة وتأخرت يوماً عن اصحابي والراعي العجوز يجوز بهم السبيل المؤدية الى البقول المشؤومة..

وحانت التفاتة من الراعي اليّ فناداني لألتحق بقطيعه، ولكن عوضاً عن ان أصدع بأمره زدت ابتعاداً عنه، فأغرب اخواني في ضحكهم، واخذوا يتفرقون من حوله وهم يلغطون ويهزجون، وتوسعت بهم الدائرة، فأغفل الراعي شأني وانصرف الى قطيعه يجمع من شمله ليستقر بالمساكين في نقطة بعينها تكثر فيها البقول المشؤومة، وتناسى امري نهائياً، في حين كنت أحث الخطى وأغذ السير وأركض جهد طاقتي، لا أتوقف حتى أعاود المسير، ولا أستريح إلا لألتمس اسباب التعب بالركض المتواصل والمشي الدائم، خوفاً من ان يشعر القوم بافلاتي من طوق عبوديتهم الجهنمية التي بدايتها جيد الغذاء ونهايتها سيل الدماء...

وهكذا ضعت في الغابة لائذاً بفيء ظلالها ووارف افيائها، اقطع المسافة بعد المسافة والشوط إثر الشوط، أغتذي

بجوز الهند وأرتوي بمائه، مؤمناً إيماناً عميقاً بأن القدر الذي نجاني من اولئك القوم الظالمين أكلة لحوم البشر، لا بد وانه مقيض لي اسباب النجاة... واخذت اتلو في سري الآية الكريمة مردداً اياها دون انقطاع: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه».

وبعد ايام عديدة قضيتها في هذا التيه من متكاثف الأشجار ومتداخل الظلال، اذا بالبحر ينكشف لناظري، واذا بي امام اناس بيض الوجوه، كرام السجايا، تقدمت منهم بلطف وحييتهم بأدب، فأجابوا التحية بأحسن منها، سائلين إياي، مستغربين، عن سبب وجودي في هذا المكان المنقطع المقفر من الناس الذي ينتهي الى ذوي الأنياب المحددة والمخالب الناشبة، الذين أشهى امنياتهم أن يلغوا بالدماء الانسانية.. ولما اخبرتهم بما وقع لي واخواني، عقدت الدهشة ألسنتهم لهول ما كابدت وشدة ما عانيت، مهنئين إياي بالسلامة، ثم وقفوا صفاً واحداً يصلون صلاة الغائب على ارواح اخوان سفري ورفاق طريقي، من مات منهم ومن هو في سبيله الى المذبح، لأن اولئك القوم من أكلة لحوم البشر كانوا لا يلتهمون ضحيتهم إلا وهم يؤدون صلاة الشكر لأوثانهم ولروح جدهم الأول الذي استنّ لهم هذه السنة الخبيثة..

هنا طاب المقام

وقضيت اياماً سعيدة وانا اعيش بين ظهراني هؤلاء القوم الطيبي القلوب، الرفيعي الاخلاق، المهذبي النفوس، أشاركهم في جني الأفاويه من فلفل وبهار، حتى اذا تم لهم ما شاؤوا أقلعوا بالفلك قاصدين وطنهم وعزيز بلادهم، الرافلة بكل اسباب الحضارة والعمران، ارتقاء بالصناعة، وانتاجاً رفيعاً للزراعة، وحركة ناشطة للتجارة، والسكان جميعاً وجوه طلقة وسمات باسمة، لا يلقون بعضهم إلا بأرق التحيات وعزيز التمنيات، يحترم الصغير منهم الكبير ويرأف الكبير بالصغير، يتميزون أول ما يتميزون بالصدق والقول، والاستقامة

فـي الـمـعـامـلـة، والـتـزاحـم عـلـى الـعـمـل الصـالـح، واتيان كل ما فيه الخير العميم والـمـنـفـعـة الـشـامـلـة، يـمـشـي الـمـرء فـي الأسـواق فـيـدهـشـه هـدوءهـا ونـظـافـتـهـا وحسن تنظيمها، يكاد يكون كل تاجر فيلسوفاً كبيراً او عالماً نحريراً، لا يدع الواحد منهم كتابه من يمينه إلا ليردّ على سـؤال مـشـتـر او عـلـى اسـتـفـهـام طـالـب معرفة، وما عرفت بينهم من يساوم كما لم أسمع من يحلف، فقلت في نفسي: «هنا طاب المقام لكل ناشد للسلامة، طالب لـراحـة الـضـمـيـر، مـبـتـغ لـلـعـيـش بـهـدوء وصفاء بال!».

وزاد اعجابي بهذا البلد الكريم الآمن الذي جعل شرعته الحق، وهدفه نشدان الحقيقة، ان ملكه شاب في مقتبل العمر، وسيم طلق المحيا ابداً، مفتر الثغر على الدوام، شجاع لو صارع الأسد لصرعه، ولو نازل النمر لاستلّ من فكه انيابه، ومع ذلك فهو جمّ التواضع بالغ اللطف، يأبى الترفع على رعيته، ويرى العظمة كل العظمة في الاختلاط بالعامة، والمشي في الاسواق بلا حرس ولا مرافقين، يدخل الـواحـد مـنـهـم عـلـيـه دخـولـه الـى بـيـتـه، ويحدثه حديث الصديق للصديق والند للند، وكثيرا ما يقضي أمسياته ولياليه في بيوت افراد الرعية، يباسطهم ويؤانسهم، يحاجـجـهم ويحاجونه بالكلمة الطيبة والعبارة المهذبة.

وقد أولاني هذا الملك الكريم عناية خاصة، وشملني بعطفه وآنسني بلطفه، مشيراً الى الخاص والعام ان يعملوا على اسعادي وادخال السكينة الى نفسي، واصطحابي معهم الى أماكن مسراتهم البريئة ولهوهم المنزه عن الابتذال والترفع عن كل ما هو رخيص.

عيد الفروسية

وعاشت المدينة يوماً من أيام اعيادها هو عيد الفروسية الذي يشترك فيه كل الشبان ابتداء من الملك حتى اصغر فرد في الرعية، وكان خفوق الاعلام وصداح الموسيقى، وماجت المدينة بأبهى الحلل وأزهى الزين، وقد جلست الصبايا في

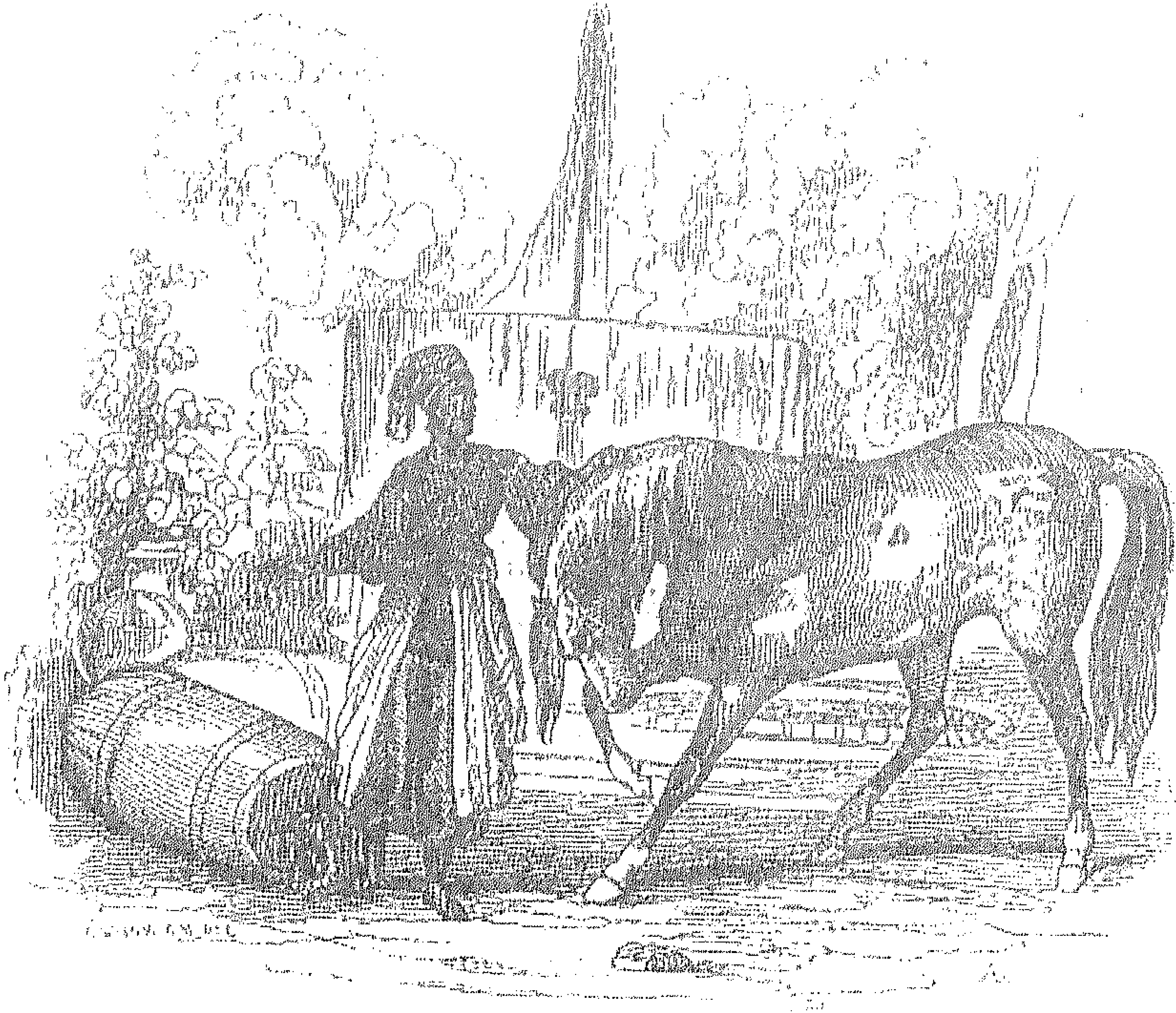


المدرج العام وفي يد كل منهن منديلها الزاهي الجميل يموج بالطيب ويخطر على أحلام وأحلام... وما هي غير لحظات قلائل حتى غمرت الحلبة العامة بالحياة والحركة، يتدفق عليها الفرسان وعلى رأسهم الملك الشاب تدفق السيل العارم، فارتفعت الزغاريد على شفاه العذارى هتاف تشجيع وحث لانتزاع قصب السبق..

وقد استرعى نظري ان اولئك الفرسان دون استنثاء يمتطون جياداً لا سروج او شكائم لها، ومع ذلك فهم

ينطلقون بها وكأنهم مسمّرون على صهواتها، بل كأن أرجلهم أحزمة على بطونها، فعجبت اشد العجب كيف يكون هؤلاء القوم على مثل هذه الحضارة وهم لا يعرفون السروج والركائب او الشكائم، واضمرت في نفسي شيئاً..

وازداد القوم اعجاباً بي وحباً لشخصي، وكنت واقفاً في طرف الحلبة انظر وأعجب، فاذا بجواد شموس يجمح براكبه فيهوي به ارضاً وينطلق حرّ الظهر من كل راكب، واهتبلتها فرصة اذ لم يكد الحصان يدانيني حتى ألقيت بنفسي على



صهوته منطلقاً به نحو الحلبة، فشخصت عيون النظارة جميعاً إلي وأنا منطلق على متن العفريت السابح بي وسنابكه جناحه، مسابقاً الريح، يغالب ذاته بذاته وهو يجوز بي الفرسان المتقدمين واحداً إثر واحد حتى تركت الملك خلفي.. ولم أشعر إلا بدوي التصفيق يملأ عليّ الفضاء، والمناديل تتطاير نحوي، والورود تقع ما بين قدمي..

وترجل الملك عن مطهم جواده بخفة الريح، واقبل علي يضمني الى صدره ويغمرني بقبل التهنئة، وهو يشد على يدي بحرارة واخلاص، وأنا واقف بين يديه أحس بشعور التلميذ المذنب أمام معلمه، لأنني لم أكن في الأصل احد المتسابقين، ولأنني اجتزته فأتى المصليّ بالسباق على حين كنت المجلّي... على ان هذا الشهم الكريم كان يزداد حدباً علي وتبريراً لسلوكي، كلما شعرت بحراجة موقفي، بينما كانت الزغاريد تطبق على الأجواء، والمناديل تلوح في الفضاء كأنها سرب من الحمام المذعور المدوّم في السماء..

وفي اليوم التالي كان لي مرور على سوق الجلود والحدادين والنجارين، وقد استطعت بمؤازرة حداد ونجار ان أنجز عمل زمام وشكيمة لا يليقان إلا بجواد ملكي، ثم قصدت إلى الملك في قصره فرحب بي اجمل ترحيب بأصدق لهجة وأحر عبارة، وقدمت ما صنعت للملك الشاب هدية متواضعة كان لها اكبر الأثر في نفسه، ولا سيما بعد ان استراح على صهوة جواده..

وتدفقت عليّ هبات الملك، وفاض الذهب في يدي، وقد عرفت كيف استغل خبرتي هذه، وطفقت اصنع السرج واحداً إثر الآخر، وأقدمها للأمراء والوزراء والقادة والنبلاء، والقوم يتبارون باكرامي واغداق العطايا علي، إلى ان غدوت احد اثرياء الجزيرة المعدودين والوجهاء المقربين والنبلاء الذين لهم موضع الصدارة، وصرت أختلف كل يوم الى القصر الملكي، يستمع الملك الى حديثي ويأخذ برأيي.

الزوجة المثلى

وفي احدى زياراتي القصر الملكي، احتفى بي الملك الشاب النبيل غاية الاحتفاء، وقام الي وأقعدني بجانبه، ثم أخذ يباسطني الحديث، ويسألني عن أحوالي في الجزيرة، فرددت عليه بلهجة ملؤها الصدق والاخلاص وحرارة الوفاء:

ـ انني هنا كما لو كنت بين ظهراني قومي يا مولاي..

ـ إذن انت مرتاح بيننا يا سندباد؟..

ـ مرتاح كثيراً يا سيدي..

ـ وهل أعجبك مواطنونا؟..

ـ انهم غاية في الرقة واللطف..



ـ ومواطناتنا؟..

ـ هنّ مثال العفة والجمال والنبل..

ـ وما رأيك لو اتخذنا منك صهراً؟

ـ تلك غاية ليس بعدها من مراد..

وهكذا شهدت المدينة حفلة فروسية صغيرة كنت انا سيد حلبتها، إذ زففت الى إحدى أميرات القصر، وانتقلت الى صرح لا يشاد في الحلم أجمل منه ولا أرسخ، وقد قرنت حياتي الى امرأة هي من النبل نقطة الدائرة، ومن العقل مثال الحكمة، ومن الطيب الروح والكنه، اما الجمال فحدّث عنه ولا حرج تناسقاً في التكوين وروعة بالصورة، ولو قيست المرأة بالطبيعة لكانت تلك الزوجة الطهور روح الربيع ببسمة زهوره، وشدو طيوره وسلسبيل كوثره، هي كل يوم غيرها بالأمس، تجدد من فتوني وتزيد في عمري، والحب عندها سفر فنون وفتون لا نهاية لمواضيعه ولا غاية لفصوله أو انتهاء لكلماته، كلما ازددت منه قراءة زادك معرفة وازداد صفحات، كأنما تمد مداده البحار السبعة.. وهكذا نسيت كل وجود إلا وجودي بجانب ينبوع الحياة، ومعين المسرة، ومثال الهناءة والوضاءة التي لا غيض لفيضها.



رفيقة الحياة والممات

ولكن سبحان مغيرّ الأحوال وهو باق لا يزول، ومبدل الأكوان وهو سرمدي لا يحول.. إذ استيقظت ذات مرة مع الضحى والنشوة ملء أعطافي، واذا بي أرى زوجي على غير عهدي بها، محلولة الشعر جامدة الثغر، في عينها دمعة وفي صدرها زفرة، تكلمني والألم يحز في نفسها، تخاطبني والهم يرعى أعماقها، وقد لبست صداراً أسود، وتزنرت بزنار أبيض، ثم مشت نحوي حاسرة الرأس حافية القدم، ولما سألتها عن حالها لم تجبني إلا بانفجار البكاء، والانكباب على صدري ناحبة معولة، وهي تقول:

ـ اختي.. اختي..

ـ اختك؟..

وهرعت الى دار عديلي مواسياً ومعزياً وبادرته بقولي:

ـ لك البقاء ياعديلي الغالي، وكل من عليها فان..

ـ البقاء لي؟.. لم يبق بأجلي إلا سويعات قليلات ودقائق معدودات؟

ـ أبعد الله عنك الشر وتغمد الفقيدة برحمته..

ـ لا رجاء من دعائك يا أخي فالموت مني على قاب قوسين أو أدنى..

ـ وكيف ذلك وانت في زهرة العمر وزهو الحياة؟..

ـ تلك تقاليدنا يا أخي..

ـ تقاليدكم؟..

ـ وذلك هو المعنى الحقيقي لتعبير رفيقة العمر وقرين الحياة، وفحوى التكافل ومعنى التكامل للحياة الزوجية عندنا..

ـ أراك توغل في المجاز يا عديلي العزيز، فافصح بالله عليك، وأوضح مدّ الله في عمرك..

ـ مدّ الله في عمري.. واني لمقبور مع زوجتي المتوفاة؟!

ـ مقبور؟.. يا للغرابة!

ـ نعم، هذا ما تقضي به شرائعنا،

ورفيقة الحياة لدينا هي رفيقة الممات كذلك.. يجمعهما بيت واحد ويضمهما لحد واحد، وليس هناك من سابق ولاحق ومسرع ومقصّر..

ـ إذن يا لشقائي أنا وصبري على بلائي!..

وأكببت على صدر عديلي باكياً منتحباً بعد ان كابدت تلك الأهوال وما لانت لي قناة، وصبرت على هاتيك المشاق وما غمز لي عود، ونفذت في قلب الأخطار نفوذ السهم في صفحة الورق..



عرس الموت

ومنذ ذلك اليوم لم يعد لي من غاية سوى مداراة زوجي والسهر على صحتها وتطييب خاطرها، أسرع لخدمتها دون ان تدعوني، وأخف لنجدتها دون ان تطلب مني، أدعوا لها بالشفاء وأحفل مهتماً بجلب الدواء.. ونفس المسكينة تتقطع حسرات، لا يجديها الدواء ولا تفيدها الصلوات، وكل يوم تزداد نحولا ويجنح نجمها الى الأفول..

اما أنا فقد غدا لي ذلك القصر على رحبه وكأنه القبر بضيقه، تنتابني الهواجس وتتصادم في مخيلتي الأفكار السوداء، أحاول دفعها فلا أجد لها سبيلا، وأبغي ردها فأقع فريستها، متكاثرة عليّ بجيوش الهم والغم والحزن والألم، حتى قررت الاستسلام للقضاء، وترويض النفس صبراً على البلاء، مردداً في كل وقت: «اللهم لا رادّ لقضائك ولا اعتراض على قدرك، وانما اللطف اللطف يا رب، فقد أنقذتني من البرابرة أكلة لحوم البشر، فلا تكتب عليّ الدفن حياً في قبر الموتى، ومدّ بعمر امرأتي أو خذ امانتك استيفاء من ذمتي، فالموت صبراً خير لي من ان أوارى في الثرى قبراً، وما استوفيت أجلي ولم ينبتّ حبل عمري...»

على ان كل دعواتي ذهبت أدراج الرياح، وماتت زوجتي فكتب علي الموت، وما اقترفت من سيئة او اتيت من جناح..

واقبل علي القوم معزين ومهنئين، يعزونني لانقضاء حياتنا على هذه البسيطة، ويهنئونني بزفافي الى زوجي الوفية في السموات العلا والملأ الأسمى.. ولكنني انفجرت باكياً وطلبت اعفائي من هذا الزواج المثالي الكامل، راضياً بحياتي الدنيا، معتذراً عنه بكوني غريباً عن الديار، بعيداً بالأصل عن هذه الأمصار، وان التقاليد تقاليدهم ليست علي بجارية ولا على امثالي بسارية... ولكنهم أجابوني:

ـ تلك سيرة حياتنا لكل من عاشر بناتنا، وأنت قد زوجت من أميرة وقرنت

حياتك بامرأة خطيرة، وقد قبلت بك وكانت منبع مسرتك في الحياة الدنيا، فلا أقل من ان ترضى بها في جوارها لربها!..

وأخيراً تبينت بأنني إن لم أحاجج أو حاججت فلا هرب لي من مصيري المكتوب وما هو عني محجوب.. وأسرعت نساء القوم يكفّن ابنتهن المتوفاة، ويحلين منها النحر والجيد والأصابع بكل ما لديها من لآلىء وجواهر، ويضعن في تابوتها كل ما حواه قصرها من نفائس وذخائر وأعلاق وطرفة نادرة وتحفة باهرة، حتى ان زينتها ليلة زفافنا لم تكن بشيء بالنسبة لتلك الزينة. ثم كمّوا فمي وأوثقوا أطرافي، ومددوني الى جانبها مرغماً، ووضعوا في جواري وجوارها عدة أرغفة من الخبز وقربة من الماء.. وارتفع التابوت على الأكف وقد زيّن بأجمل الزهور وطيّب بفاغم العطور، وساروا به والموسيقى أمامه، وحداء المنشدين والمنشدات وراءه... انهم يزفّوننا الى الملأ الأعلى وللآخرة الفضلى!



حي في قبر

وما زال القوم سائرين حتى وصلوا بنا إلى طرف سفح من جبل يقوم على الشاطىء هو حديقة الوجود وجنة الدنيا الأبدية... بينما كنت أنا جفوناً مخضلة بالدمع السخين، وقد تحطم قلبي الحزين، زائغ اللب مرتاع النفس، ما افتأ أردد: «الرحمة الرحمة... الشفقة يا ناس.. ايها الاخوان، ايها الأصدقاء...» والقوم يهدئون من روعي معزين مواسين: تلك هي الرحمة وذاك فحوى الرجاء، وقريباً سأطل عليهم من أعالي السماء فيزداد طربهم بي طرباً وسرورهم سروراً... مطمئنين إياي بأني ان خفت الآن فعن قريب ستسكن نفسي، وان روّعت فسيفرخ من روعي،وان يئست فسيمدني الله بحبل الرجاء!..

وأشار كبيرهم فاشتد القرع على الطبل والنفخ في الصور، فضاع عويلي بين هدير الطبل وجلجلة البوق، وغيّبت تحت تلك الصفيحة نفساً متقطعة يأساً، وروحاً ولهى، وزفرة حارة، ودمعة سخينة..

ولما احتواني القبر بظلمته، أخذت أتلفت حولي فاذا بي في كهف حقيقي يكاد لاتساعه يكون رقعة لمدينة تحت الأرض، مرصوف بالتوابيت تابوتاً إلى جانب تابوت، وصندوقاً حذاء صندوق، وجثثاً محنطة، وأخرى مشوهة مهشمة... في أكوام من العظام وتلال من الرّفات.. وفوق هذا وذاك كنوز لو علم بها قارون لتصاغر في نفسه، ولو ألمّ ببعض بعضها سليمان لباع بها تاجه وصولجانه وعرشه العظيم ورصد عليها بسحر خاتمه الكريم.. وأعمل الحفارون فؤوسهم ومعاولهم فرفعوا من جانب الأرض صفحة كبيرة انكشفت عن هوة واسعة سحيقة.. ثم كان انزال تابوت الميتة اليه وهم يغنون ويهزجون ويدعون ويصلون... وعمدوا بعد ذلك إلى حل وثاقي وانزالي وزوادتي من الخبز والماء في تلك الهاوية، وهم يتمنون لنا سعيد الحظ في ائتلاق نجم فصرخت من جزع وفزع بالغين، ورهبة عارمتين، واستيقظ في اعماقي حب الحياة، والرغبة

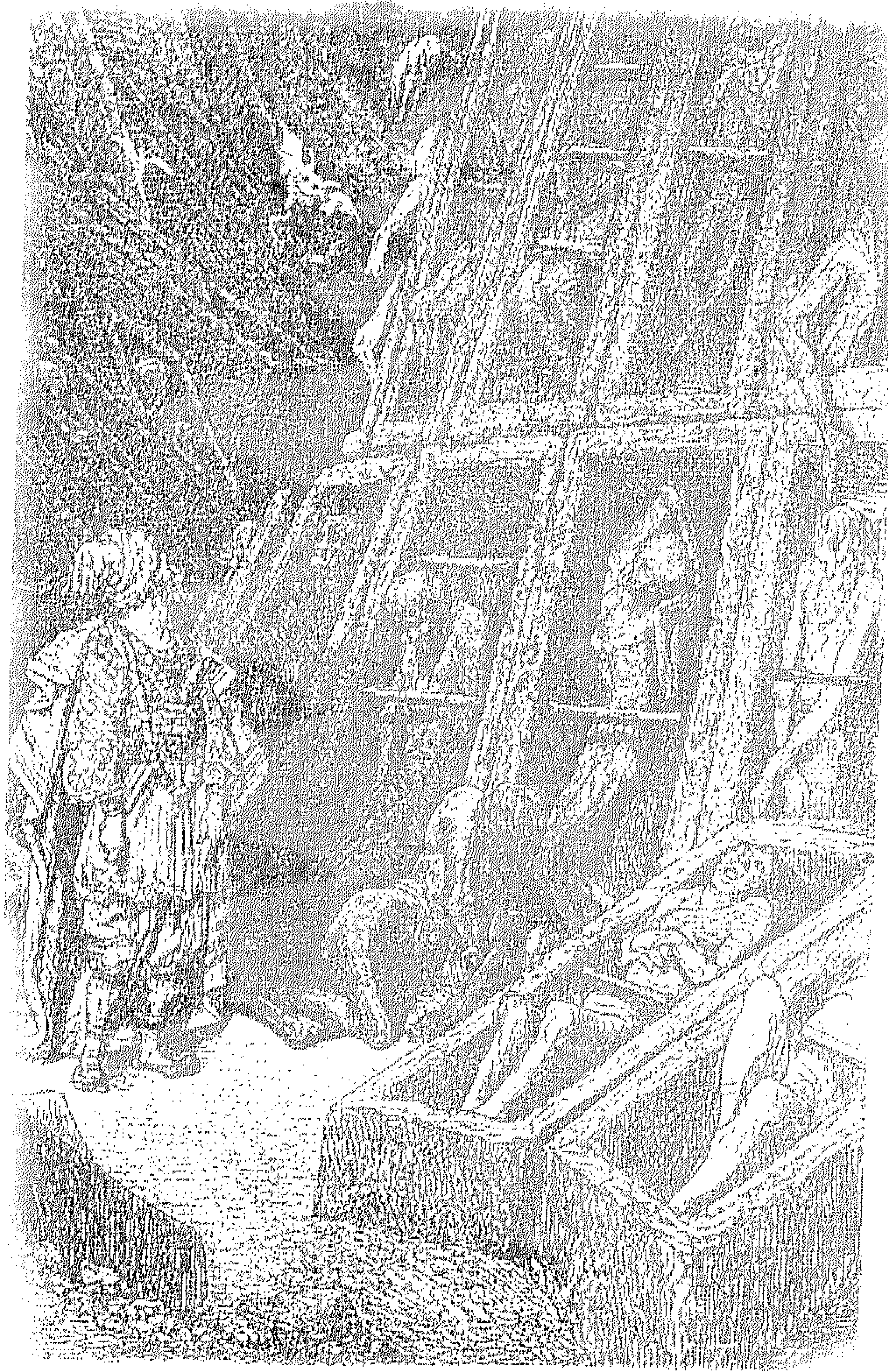
الملحة في رؤية النور، والتطلع الى النجم وأنا تحت أطباق الثرى، ولألاء القصور وانا في اعمق ضريح في القبور... وقمت أتمشى في هذا الناووس، علّني أرى لي منه مخرجاً، أو يتولاني فرج الله، وتتداركني رحمة السميع المجيب، العارف بما تخفي الصدورمن بدء الخليقة إلى يوم النشور..

في سبيل البقاء

واقتصدت بالطعام واقتصدت بالشراب، مستصرخاً في أعماقي روح الجلاد والعناد، والصبر على قلة الماء والزاد، أتجسس في كل يوم ركناً من اركان هذا الكهف، أدب دبيباً وأتلمس تلمساً، وفي يوم من ايامي السوداء هذه، وانا ازداد تعلقاً بأسباب الحياة وهرباً من اسباب الموت، وكنت أتبلّغ بآخر كسرة وأشرب آخر جرعة، إذا بالصفيحة تتزحزح من ركنها ويتسرب النور الى ظلمات هذا الكهف، ويصم أذني دوي النشيد يغيب في أعماقه نحيب شيخ متهدم ينزلونه الحفرة الى جانب عجوزه... وكمنت انا في ركني غير المنظور أترقب وأترقب، حتى اذا عاودت المكان ظلمته أطبقت بكل ما لدي من قوة الساعد على عنق العجوز اضغط وأضغط، وما هي غير دقائق معدودات حتى همد الرجل بين يديّ، ونهضت أستلبه كنزه الحي من الخبز والماء، مبرراً لنفسي ما اقدمت عليه بأن هؤلاء القوم قد ارتضوا لأنفسهم هذه الشرعة وآمنوا بهذه العقيدة، اما انا فما ارتضيت ولا آمنت.. وتتابعت فصول تلك المأساة، وعمر سراج عمري بانطفاء أسرجة أناس سلموا انفسهم للموت مختارين.. وهكذا حققت في ذاتي غريزة حب البقاء، وتمكنت من دفع شبح الفناء..

وجلست في يوم من تلك الأيام المظلمة أندب حظي وأبكي على سالف أيامي التي كنت فيها حراً على متن البحار، وأتوثب ظافراً على صعيد القفار، وأنا الوم ذاتي بذاتي: تلك عاقبة الجشع يا سندباد، والسير خبباً وراء الرغبات والملذات!... ثم أنقلب تبكيت الضمير في

اعماقي وتقريع الوجدان في ذاتي، الى ضرب من الجأر: بالدعاء بسخين الدموع وزفرات الرجاء: «رحماك يا رب رحماك.. لطفاً بقضائك وليناً بقدرك، وارحم عبداً من عبادك طبعت ذاته ارادتك القاهرة، فكان عقله بعض بصيص النور من شمس قدرتك وغالب ارادتك.. رحمة يا رب.. رحمة يا رب!..»



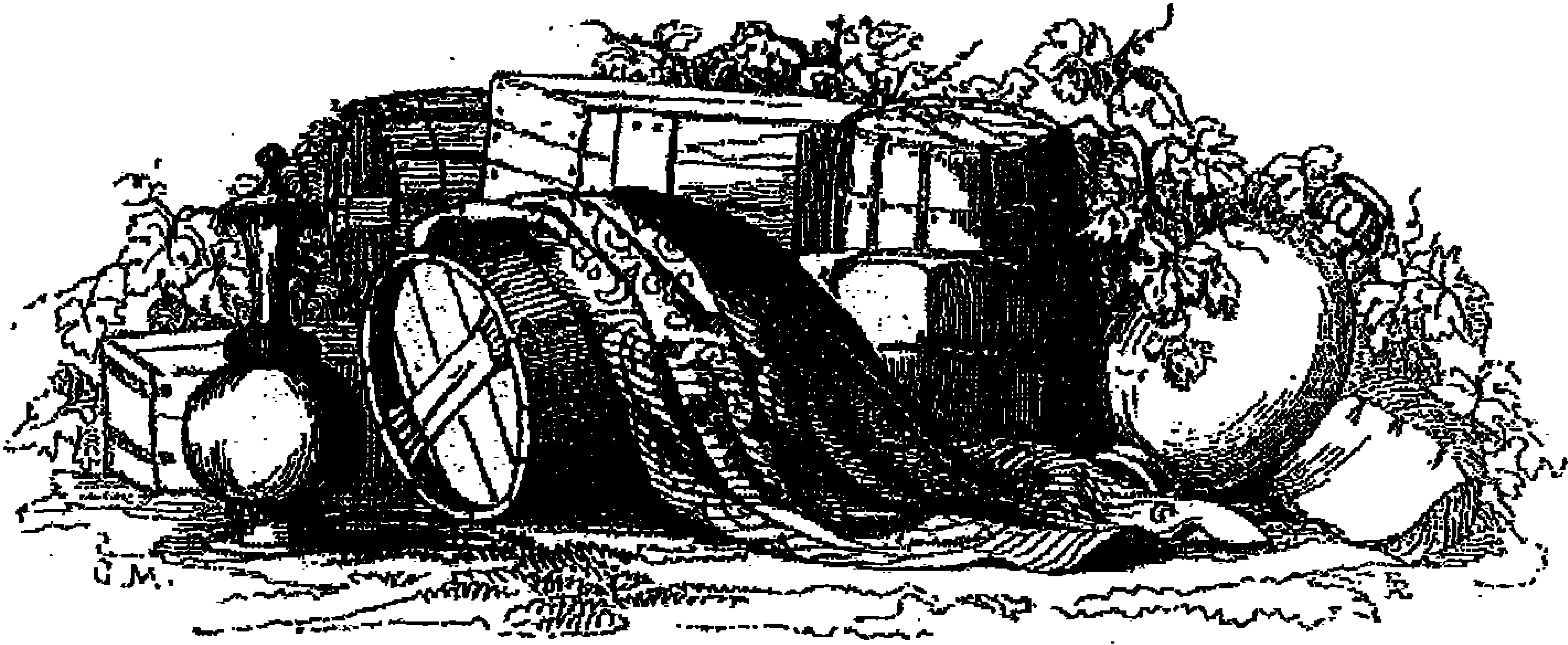
انسان وضبع

وفيما انا على هذه الحال من الاستغراق الروحي والانخطاف النفسي، إذا بي أحس بشيء يدب بالقرب مني، فصرخت صرخة جزع وفزع زلزلت اعماقي، وبدون شعور مني كان عظم ساق بيمناي متسلحاً بها، ومتحفزاً للنزال والقتال والجلاد والصراع، وإذا بالأثر الذي كان يتقدم نحوي قد انكفأ راجعاً الى الوراء كأنه يلوذ بالهرب، فاندفعت وراءه غريزياً متبعاً ظلاله، غير حاسب له ـ كائناً ما كان ـ أي حساب، واذا بأذنيّ يصافحهما لهاث وشخير، ولكنني تشجعت مندفعاً بكل قوتي نحو هذا الشيء الذي لا أدري كنهه، فازداد ابتعاده عني، كلما ازددت له تتبعاً، حتى بعدت كثيراً عن ركني السابق موغلا في اعماق هذا الكهف الواسع الجنبات، واذا بالطريق تنجلي عتمته الى غبشة استبنت من خلالها ضبع كبير، فلم أرتع منه ولم أجزع، وإنما تتبعته صارخاً به، أتعثر واقعاً طوراً، وانتصب على قدمي طوراً آخر، موقناً هذه المرة عميق اليقين بنجاتي من قعر هذه الظلمة البعيد بأعماقه، الواسع بجنباته، واذا بتلك الغبشة تنجلي عن وضوح في المكان على قفزة الضبع الهارب، ويتبين لي ان هذا الكهف ينتهي في أحد اركانه بثغرة أحدثتها الوحوش المولعة بأكل الجثث..

وقفزت مسرعاً خلف الضبع، حيث صافح النور عينيّ وكحل الضياء مقلتيّ، بعد طويل انحباس في اعماق الظلام، فعشي بصري للوهلة الاولى، ولم أستطع وأنا أتنفس ملء رئتي إلا ان أخرّ ساجداً لله، تمرّ بنفسي أشتات مشاعر الشكر ومختلف أحاسيس الحمد، والسرور الغامر والبهجة الجياشة.. يلهج لساني بالدعاء لرب السماء الذي قيّض لي النجاة بعد اليقين من الهلكة، والحياة بعد الموت المحقق، ومدّ بحبل رجائي بعد ان تصرمّه اليأس وكاد يطغى على نفسي القنوط..

آية الرجاء

وتفحصت مكاني من سفح الجبل المنتصب ما بين المدينة واليم، فاذا به جنة حقيقية معلّقة، فأخذت أطعم من الثمار اللذيذة وأستنشق الهواء ملء رئتي، أود لو أستطيع أن أتنفس بكل مسامة من مسام جسمي، وأتملى النور محدقاً بعين السماء الساطعة الوهاجة، حتى اذا استجمعت مشاعري واطمأننت الى هدوء اعصابي، وشعرت بالراحة الجسمية بعد هدوئي الروحي، خلعت عني ثيابي ثم قذفت بجسمي في غمرة الماء أسبح بعيداً بعيداً، وأنا لا أكاد أصدق انني اصبحت على صدر الدأماء بعد ان كنت الى قليل في معتم الغبراء.. وكان الهواء رهواً والنسيم عليلا، والموج ارجوحة أبدية.. ولما شعرت بالخدر يدب في أوصالي عدت الى الشاطىء إلا أني لم أطل المكوث، وانما انحدرت مسرعاً الى جوف الكهف الواسع أنقل كنوزه، أضعها في التوابيت المصنوعة من الساج وخشب الصندل، ثم ألفها بأثواب الاكفان وأحزمها بالحبال التي كانوا ينزلون بها التوابيت.. وبعد أن نضددت تلك الصناديق المليئة بالكنوز الغالية على الشاطىء أغلقت تلك الفتحة بصخور كبيرة ولبثت أنتظر فرج الله...



وذات يوم وانا واقف على نبوة من الأرض أحدق في الأفق البعيد متلهفاً لما وراءه، والحنين الى الأهل والأخوان والديار والأوطان، قد أخذ يغزو فؤادي، إذا بي ألمح بعين الصقر شراعاً يتهادى على صدر اليم آية من آيات الرجاء، وشعاراً لقدرة الانسان على تذليل الصعب وارتياد المجهول.. فهتفت من مكاني رغم البعد الذي يفصلني عن السفينة المتهادية بوحدتها على صدر هذا المتسع الجبار، وأخذت عمامتي عن رأسي ملوحاً بمنديلها، وكل كياني متفجر طاقة وقوة أمل وتألق ورجاء.. ولا اكذبكم ان قلت لكم ايها الأخوان، بأنني من مكاني ذاك كدت اسمع غمس المجذاف في اليم، وصرير الساري المتهادي تهادي النشوان في الفضاء الواسع..

وشعر البحارة بوجودي فاتجهوا صوبي، وأنا لا أكف عن التلويح بمنديل عمامتي، أهزج وأرقص، حتى تلقوني بين أيديهم مسلمين مهنئين، إذ كانوا من البحارة العرب وسفينتهم من سفن البصرة..

وسألوني عن امري فلفقت لهم قصة من نسج خيالي، صدقها قوم وهمس آخرون بعضهم في آذان بعض: انه السندباد.. بطل بغداد!.

وعادت السفينة إلى تهاديها النشوان على صفحة الماء، وأنا واقف بجانب الربان على الدفة، أحدثه ويحدثني، أسامره ويساجلني، وفي كل خطور لهذا الشراع الذي تطبع عليه الشمس كل يوم ملتهب قبلاتها مصبحة، وتودعه بجميل خيوطها ممسية، وفي كل ضربة مجذاف، دنو من الوطن الحبيب، حتى كنا في البصرة، درة الدنيا ولؤلؤة الوجود.. ثم كانت لي قافلة خاصة سارت بي الى بغداد وطني الحبيب الذي آليت ألا أغادره وألا أفارق أسواره..

وكانت لي يد مددتها مغيثاً للفقراء وأبناء السبيل من البؤساء.. ويد أنشأت بها الجوامع ودور الاحسان، أنتشي

بنشوة الخير المشعشعة في كؤوس الشكر يقدمها لي الممتنون من الناس، فأردها اليهم ملأى دهاقاً باكسير البر لا أقتضي عنه جزاء ولا أبغي شكوراً، مقرراً ان أركن الى الراحة وأخلد الى السكون.

ولكن رغم ذلك القرار، كانت لي جولة خامسة على صدر البحار...

ثم التفت السندباد الى سميّه وهو يقول:

ـ أي أخي.. إن شطّ بك المراد فتبلّغ من هذا الزاد!..

ودس في يمينه الصرة الذهبية المعلومة بمضمونها كماً وبمحتواها كيفاً.. مائة من الدنانير الرنانة.. والكل متواعدون على اللقاء صباح اليوم التالي بعد قضاء واجب هذا اليوم بما يسّر لهم سندباد من متع مسرة، ولهو برىء، وشرب وزاد..





شيخ البحر

كان سندباد في هذا اليوم مشرق الوجه منبسط الأسارير، يأتي كيفما التفت بنكتة او فكاهة، ينثر دعاباته هنا وهناك، يباسط هذا ويمازح ذاك، وكيفما التفت وأنىّ دار عاد الى باعث ذكرياته من مراقدها ووقائعه من مصادرها، سندباد حمّال بغداد..

وقد أبى هذا اليوم إلا ان يطوف

بنفسه على ضيوفه ويخدمهم بنفسه، وهو يردد:

ـ هذا نخب الناهض من القبر والآتي من عالم الحشر، والسلام والأمن لتلك الأرواح التي أخذت كنوزها، والرحمة لتلك المرأة، التي حبذا لو بقيت شريكة حياتي، أنهل من راح أخلاقها وسلاف آدابها، والتي كانت صحبتها يقظة الروح، وبلورة الفكر، وصقل النفس بالتهذيب والتدريب، بالقدوة المثلى والسيرة الفضلى..

ولا أخفي عليكم أيها الأخوان انه رغم الكنوز التي كانت في حوزتي، والضياع الجارية بملكيتي، والعبيد الذين يخفّون لخدمتي، والاماء اللاتي لا راحة لهن إلا براحتي، جلست استعرض ذات يوم وأنا جالس في شرفتي المطلة على دجلة الخالدة، فسرحت في الخيال أستعيد ماضي الذكريات، وأحيا ما جرى لي من مخاطرات ومغامرات، وأنظر الى نفسي فأراني حياً رغم ما ركبت من أهوال ومخاطر، ومفاجآت غير منتظرة، وكلها تأتيني بأوفر النعم وازكى الثمرات وأوسع الثروات..

على مركب يتحدى البحر

وهبت عليّ الريح بليلة بماء دجلة فتحرك الشوق في أعماقي لركوب متن المياه، للمغامرة هذه المرة وليس للمتاجرة، لا أقصد شيئاً إلا أن أروض صدر البحار وأتحدى الأخطار، وإن هجس في نفسي هاجس بعيد يقول لي: «ولا تثريب عليك إذا ما رسيت بسفينة تشتريها على سفح الجبل الذي ترقد تحته كنوز مدينة امرأتك الفاضلة، دون ان تدخل تلك المدينة او يحس أهلها بوجودك!..»

وهكذا قصدت الى ثغر بلاد العرب مدينة البصرة العامرة، ونزلت البحر بزورق صغير أدور بين المراكب والسفن انظر اليه بعين متفحصة يقظى واعية، حتى وقع طرفي على مركب شراعي يتحدى البحر بصدر ليث رابض، ويرتفع

صاريه شموخاً في العلاء وذهاباً في الفضاء، يخيّل اليّ من عظمته لو ربط الى جبل ولعب الهواء بشراعه لجرّ الجبل وراءه نازلا به الى اليم جزيرة عائمة.. فأعجبني منظره وأخذت بحسن بنائه، وكان هو المركب الذي أنشد والسفينة التي أبغي، فلم تطل وقفتي مع صاحبه وإنما نقدته الثمن الذي أراد وبالشروط التي أملى، حتى إذا جرت ملكيته بأمري آخيت ربانه وعتقت بحارته العبيد، وأعددتهم لرحلة طويلة قد تنطوي على الموت الأحمر، وقد تأتي بأعلاق الدنيا من در وجوهر..



وأردت اخفاء غرضي البعيد وتغطية عمليتي السياحية هذه، فأرسيت مركبي في الميناء أتقبل بضائع التجار، حريصاً قدر المستطاع على ان تكون الأماكن التي يقصدها ارباب السوق هؤلاء قريبة من خط سيري، وغير بعيدة عن نقطة هدفي الذي لم أشرحه بالتفصيل حتى لأخي بميثاق الله وعهده، الربان الطيب القلب الكريم النفس، المنطوي على روح الجرأة، والمغامرة والتضحية والاقدام..

ومع أول هبة ريح مؤاتية انطلقنا مبحرين على نشيد البحارة الذين يستنشقون نسيم البحر لأول مرة بقلوب يعمرها الأمل، ونفوس راسخة الثقة، وعزم ويقين، واعتداد بروح الحرية التي جعلتهم أسياد انفسهم، أسياد موقفهم، يعيشون عيد ميلادهم الجديد أغنية منطلقة من أعمق أعماقهم، أغنية لو لامست قلب الشتاء لفجّرته ربيعاً متدفق ينابيع الحياة، يرفل بأثواب الخلود، ويتيه على الدنيا وجوداً جديداً ومعنى فريداً وطاقة ابداع وجمال..

وخطر الشراع، على اليم يطوي المسافات، والبحارة ابداً عزم متجدد، يصبحونني بالدعاء لي، ولا تنام أعينهم إلا بالثناء علي والشكر لله والحمد لوضعهم الجديد.. وقد مررنا بالموانيء ميناء إثر ميناء والثغور ثغراً بعد ثغر، ونزلنا في جزر وأقلعنا عنها، نتزود بالماء والطعام والمؤن والعدد، والتجار حركة دائمة ونشاط مستمر، لا يحلّون في مكان يستنفدون فيه حاجاتهم إلا قصدوا غيره، واشرأبت أعناقهم لما بعده، يبغون الربح وفيراً والمال كثيراً، والمغنم اينما اتجهوا كان هدفهم، وما كسد في هذه السوق طلبوا سوقه الحقيقية، لا فرق عندهم بين مسافة طويلة ومرحلة قصيرة، فالربح يجعل في عرفهم أبعد المراحل أدناها من هممهم، والخسارة تباعد ما بينهم وبين بلدهم... وكم كنت سعيداً إذ كنت في هذه المرة دارساً غير بائع ولا شار، وان كنت في أعماقي أقيس المسافات، وأقارن بين المراحل، وأقدّر زوايا الانحراف بخط سيرنا، وأحصي

الايام وأعد الليالي والشهور توصلا الى جبل المدينة السعيدة التي تسعى فوق كنوز موتاها أزواجاً أزواجاً..

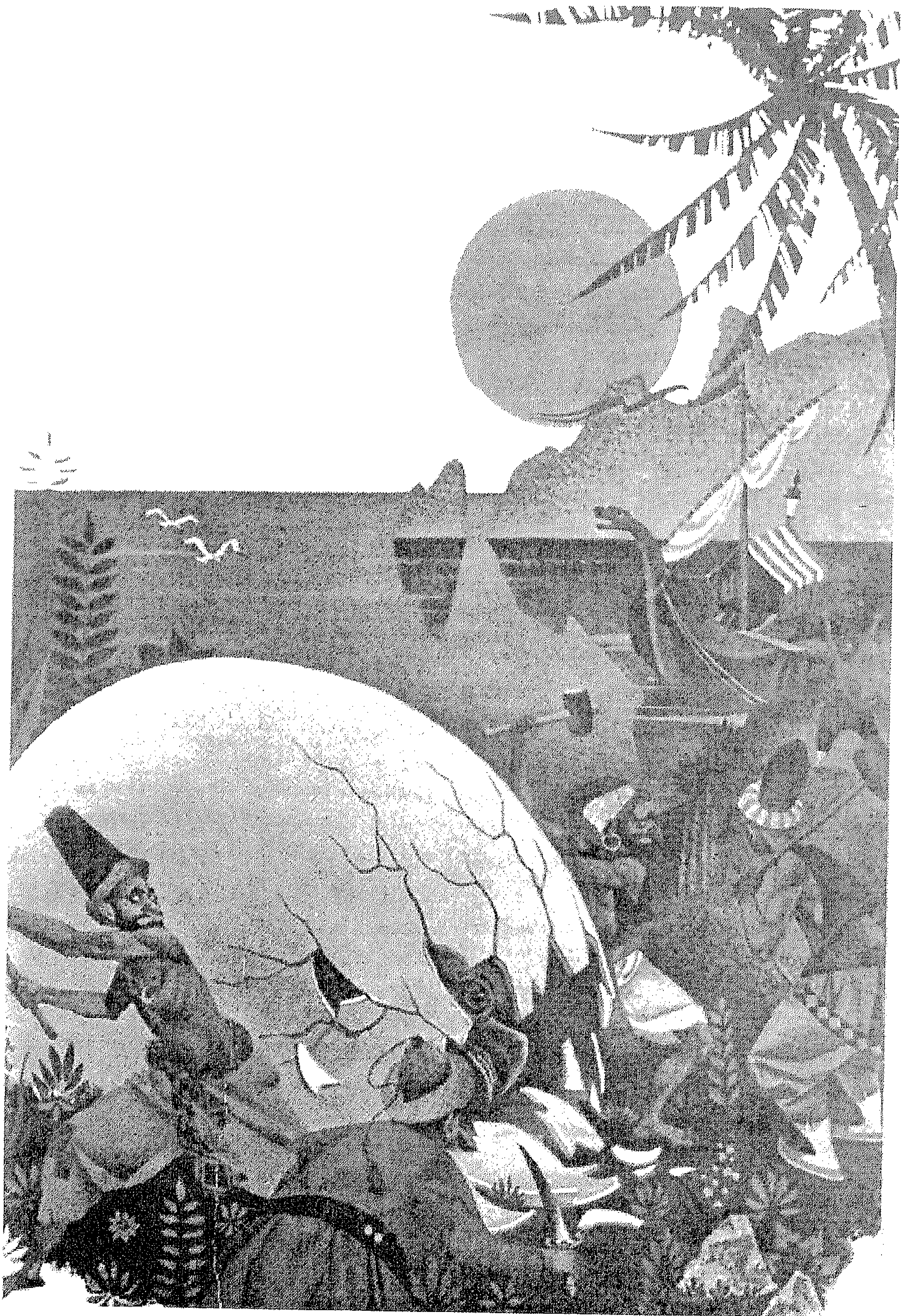
وليمة وهزيمة

ورست السفينة يوماً على شاطىء جزيرة مقفرة، وطلب البحارة منّي الأذن للنزول فيها فأذنت لهم، وأسرع اليها التجار طلباً للبر لطول عهدهم بالبعد عنه، على حين قد لبثت أنا في قمرتي أعيش وأحلامي التي تنداح بعيداً بعيداً حتى لتكاد تشمل الأفق من اطرافه..

وجاس التجار والبحارة ارجاء الجزيرة التي توسطتها بيضة رخ هائلة شبيهة بالتي طالعتني في احدى رحلاتي السابقة، وكان فيها فرخ على وشك التفقيس، إذ كان منقاره قد شق سبيله الى الهواء، وجوانب البيضة قد أخذت بالتصدع، كبنيان قائم في منطقة زلزالية ولكنه على وشك التداعي والسقوط..

واهتبل التجار الفرصة، ولم يقصر عنهم البحارة المساكين اللذين عاشوا اعواماً طويلة على الخبز والماء والسياط تلهب ظهورهم وهم مكبوّن على صفوف المجاذيف يكدوّن عليها السواعد ويرهقون الأجساد... وتسلح كل من اولئك وهؤلاء بحجر ضخم وراح يرمي به بيضة الرخ إلى ان تمكنوا من تحطيمها وجرّ ذاك الركام من اللحم منها... ثم انعقدت منهم حول اللحم المشوي حلقات حلقات، يطعمون ويتنادرون ويتبادلون الفكاهات على قرع الكؤوس وتبادل الانخاب، وانا عن كل ذلك غافل، اعيش احلامي السعيدة واستعيد ماضي الذكريات، متذكراً كيف يكون ابناء المدينة الفاضلة غاية بالرحمة فيما بينهم، لا يرتفع صوت احدهم على احد او يقسو عليه، ثم يطلب له الموت وهو لم يقض الوطر بعد من الحياة لارتباط زوج بزوجته او امرأة ببعلها، ومع ذلك فانهم يقبلون على الزواج برغبة لم أرها في قوم من الأقوام التي عرفت، او شعب من الشعوب التي عاشرت!..

وأقبل عليّ القوم وهم مثقلو



الأجسام مثقلو الرؤوس، وقد اكثروا من الطعام واسرفوا بالشراب، وما من فرد منهم إلا وهو مثقل بشرائح من اللحم تكفي لوليمة عامرة، وكل منهم يرفع عقيرته بالغناء، قد استخفّته النشوة، وطارت بلبّه تلك الوليمة التي لم يطعم طعاماً أشهى منه ولا ألذ وأمتع..

ولما عرفت ما فعلوا داخلني الرعب، وسرى الفزع في اوصالي، وتقطعت من الجزع نياط القلب، متذكراً ما مرّ بي من تجارب مع الرخ، وما ابتلتني الأحداث معه من وقائع، وصرخت بالربان الذي كان منصرفاً لبعض اعماله وشؤونه على المركب، فهرع الي وهو مضطرب الخاطر مرتجف الأوصال، وأمرته فنشر القلوع وأسلم الشراع الرئيسي لأيدي الرياح تنفخ فيه وتدفع بالمركب بعيداً عن هذه الجزيرة الملعونة، ثم برقت بذهنه خاطرة فطلب من البحارة والتجار ان يبادروا الى القاء شرائح اللحم في اليم لأن أبويّ الفرخ لا بد ان يستدلا على فاجعتهما بولدهما برائحة لحمه وهما في أجواء الفضاء... فصدع البحارة بالأمر، على حين تردد التجار قليلا، ولكن هل من المستطاع مخالفة الرّبان في عرض البحر؟..

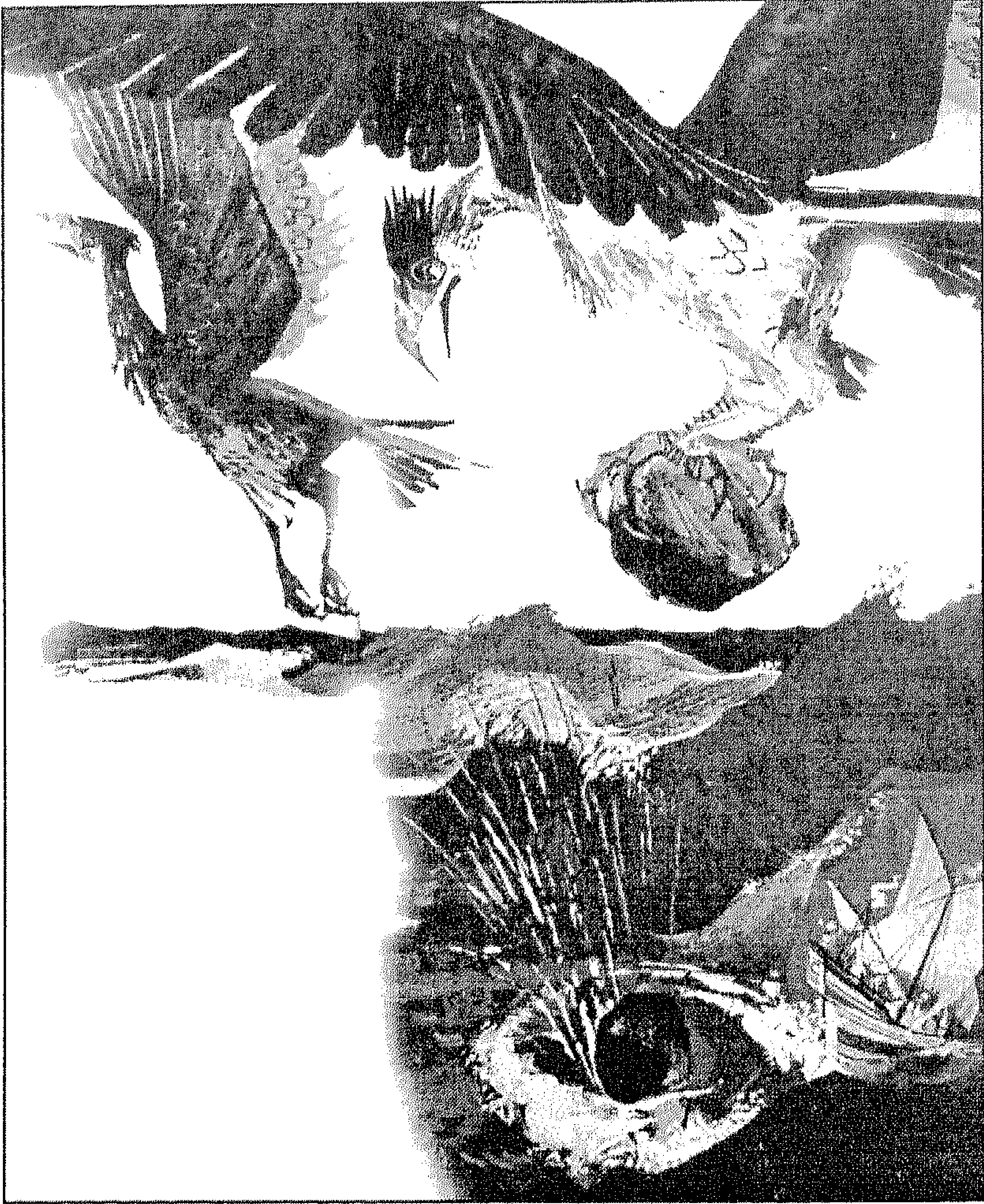
صراع مع الرخ

وأخذت الشرائح سبيلها الى اعماق الماء، وإذا بوفود الاسماك تحدق بالمركب من كل ناحية، وكلها افواه مفتوحة في الهواء تتلقف فضلات تلك الوليمة الفريدة في نوعها لتعود سابحة في اعماق الماء وقد وفد من ورائها اضعاف اضعاف عددها، فكانت هذه العملية من دواعي سرور التجار وبهجتهم فأخذوا يبضعون شرائح اللحم قطعاً قطعاً، وكل قطعة اصغر من التي سبقتها واكبر مما يليها..

وفي هذه الغمرة من النشوة العارمة والرضى النفسي، إذا بالربان يصيح صيحة كأنها تنفجر من كل مسامة من جسمه، فقد أظلمت الدنيا بشكل مفاجىء، ورمى المسكين بطرفه الى الجهة

الشرقية من الأفق، وإذا بقرص الشمس يختفي وراء جرمين هائلين متحركين باتجاه السفينة..

وما عتم الرعب ان لفّ السفينة بغمامة أشد ظلاماً من ظلمة الأفق، إذ غدت وكأنها تتأرجح في كف عفريت على خفق تلك الأجنحة، التي سدّت الأفق.. وانطلقت الحناجر بالدعاء، والألسنة بالابتهال والرجاء.. وقد تخفف الجميع من شرائح اللحم يرمونها في اليم دفعة واحدة، ولكن



كان الجواب على هذا الدعاء وذاك الرجاء زعقة أشبه ما تكون بهدير بركان.. واشتد رعبنا حين رأينا مقدمة السفينة قد نكست باتجاه الأعماق، إثر صخرة القيت فيها وكانت تستهدف مركز القلب.. وتهادى الشراع ذات اليمين وذات اليسار ثم اعتدل المركب اعتدال جواد كاد يكبو ولكنه تماسك فعاود جريه.. وصاح الربّان: «يا الله!..» بيد ان الجواب كان صخرة ثانية كادت تصيب المركب من مؤخرته.. فتهادى ترنحاً ثم عاود سيره على انجلاء جانب الأفق، تودعه زعقة لو لامست صماخ آذان الدهر لتعطّلت فيه حاسة السمع.. وخرّ التجار سجداً لله الذي أزال عنهم الهم وكشف الغم، فيما كان البحارة يتطلع بعضهم في وجوه بعض، وقد عقدت المفاجأة ألسنتهم واختطفت منهم وردي ألوانهم.. ولكن الجو ما عتم ان اكفهر ثانية أشد وأعمق رواقاً، وتتالى الزعيق ثانية، ولم ينهض الساجدون من سجودهم، اذ قابلوا وجه الله في اعماق الهاوية السحيقة على أثر تفكك السفينة وتطايرها شظايا وقطعاً متناثرة بدداً، إذ سقطت عليها بضربة محكمة تكاد تماثل تلاً صغيراً...

وهلك العديد من التجار، وطفا بعض البحارة على سطح الماء يصارعون الامواج بأذرع حديدية جبارة، ما كان أصبرها وهي مشدودة إلى صفوف المجاذيف، تكافح وتكابد، تعاني وتجالد، ولما تطلعت إلى عين الشمس بعد تحررها تستمطر الخير، جادتها السماء بمتاعب ومصائب ومخاوف ومهالك.. لقد كانت تلك الأذرع الحديدية تأبى على الموجة إلا الطفو على غاربها، وعلى البحر إلا الارتفاع على غاربه، ولكن اللجّة قد اغرمت بتلك الأذرع، وضاق البحر بتلك الأنفس، تجتذبهم الأعماق، وتحدق بهم اللجج، ترتفع بهم طوراً وتنكشف أطواراً عن اغوار هي القبور الواسعة الجنبات الباردة برود الموت، ولا تلبث الأجنحة الهائلة ان تمرق فوقها فتقذفهم بجسيم الأجرام من الحجارة، فتهوي فوقهم أو

بجانبهم، وفي كلتا الحالتين الموت المحقق، عبوراً إلى الأبدية دون جواز..

ارادة المجهول

وهكذا كانت الاعداد تتناقص، والشخوص تتقلص، فائضة الى باريها، انعتاقاً بالروح بعد هذا الأسر الطويل وذاك العذاب الوبيل.. حتى انتهى الرقم الى الصفر، واتخمت أحشاء القعر..

أما أنا فكنت لحسن طالعي وارتفاع نجم سعادتي، قد قذفت مع لوح خشبي الى جهة نائية، بعيداً عن حومة تلك المعركة الضارية الناشبة ما بين تلك النفوس المكافحة والقوى الطبيعية العاتية..

وما زلت متشبثاً بلوحي الخشبي هذا، أكافح حيناً وتتقاذفني الأمواج أحياناً، لا طاقة لي غير ان أسلم نفسي لمسرى الريح تدفع بي بقواها العمياء التي هيهات ان أبلغ مبلغ نظرتها أو أسمو لسمت فطنتها، لأنها كانت بهبوبها ارادة المجهول الذي خطّط مصيري، يجتذبني بخيوط غير منظورة، ويدفعني نحو ذاك المصير بطاقات خفية، إذ انني فيما كنت لا ارى غير الموج اللامتناهي الأبعاد، وإلا السماء بقبتها الزرقاء، كلما شارفت أفقاً امتد من بعده أفق، وكلما انبسط لي جو تلته أجواء، اذا بي، ويا لروعة المفاجأة، أنظر فيصافح بصري مطلع النور ببحر من الخضرة يغالب المحيط بامتداده..

وانبعثت بي القوة والطاقة والحمية، ولكن الريح، ولأسمها الآن روح القدر، تهب فتدفعني دفعاً عنيفاً، كما لو عربد الطفل بأكرة، ثم تعود فتفتر حميتها، فيعود البحر رهواً تكاد تكون صفحته صدراً لمرآة... وانا بحذاء الجزيرة الخضراء.. وأسترد انفاسي المبهورة المتقطعة، وأكافح لاسترجاع قواي الخائرة، أدور متفحصاً حول الشاطىء الصخري المتسامي حيالي تسامي سور شاهق، وأجذف على لوحي الخشبي، وأنا واثق النفس من مصيري مطمئن البال لنهايتي..



وما فتئت أسبح قرب السور الذي أخذت ذروته تطأطىء الهامة قليلا، حتى بلغت مكاناً شعرت فيه بالرمل المترامي تحت قبلات الأمواج التي تحتوي الشاطىء بألف ذراع وذراع.. وحينئذ فقط تركت لوحي الخشبي طافياً على سطح الماء، وتقدمت قليلا لأرى نفسي في الخط الرملي الذي ليس بحراً صرفاً ولا براً خالصاً، ولم يبق عليّ الا ان انتصب على قدميّ وأسير بخطى ثابتة نحو البحر المحض، ليحتويني محيط الخضرة ابتعاداً عن تلك الزرقة في ذلك السائل الرجراج الدائم التأرجح..

وحين بلغت النقطة التي وددت، والهدف الذي رغبت، استلقيت متمدداً على ذلك البساط السندسي الرائع، أعيش بشعور آدم أبي البشر قبل ان يستلّ الله ضلعه من جنبه لتتمثل له فتنة الحياة حواء.. أحس بأنني الوجود كله، وان الكون الأعظم قد انطبع في صدري وسرى جارياً في عروقي، نفساً بريئة وعقلا طاهراً وجسداً لا يطلب إلا الرحة.. وأدير طرفي فيما حولي فلا أرى سوى خضرة يانعة وأثمار دانية القطوف، وفردوس حقيقي وبانسياب جداوله ودعاء بلابله ووسوسة غصونه.



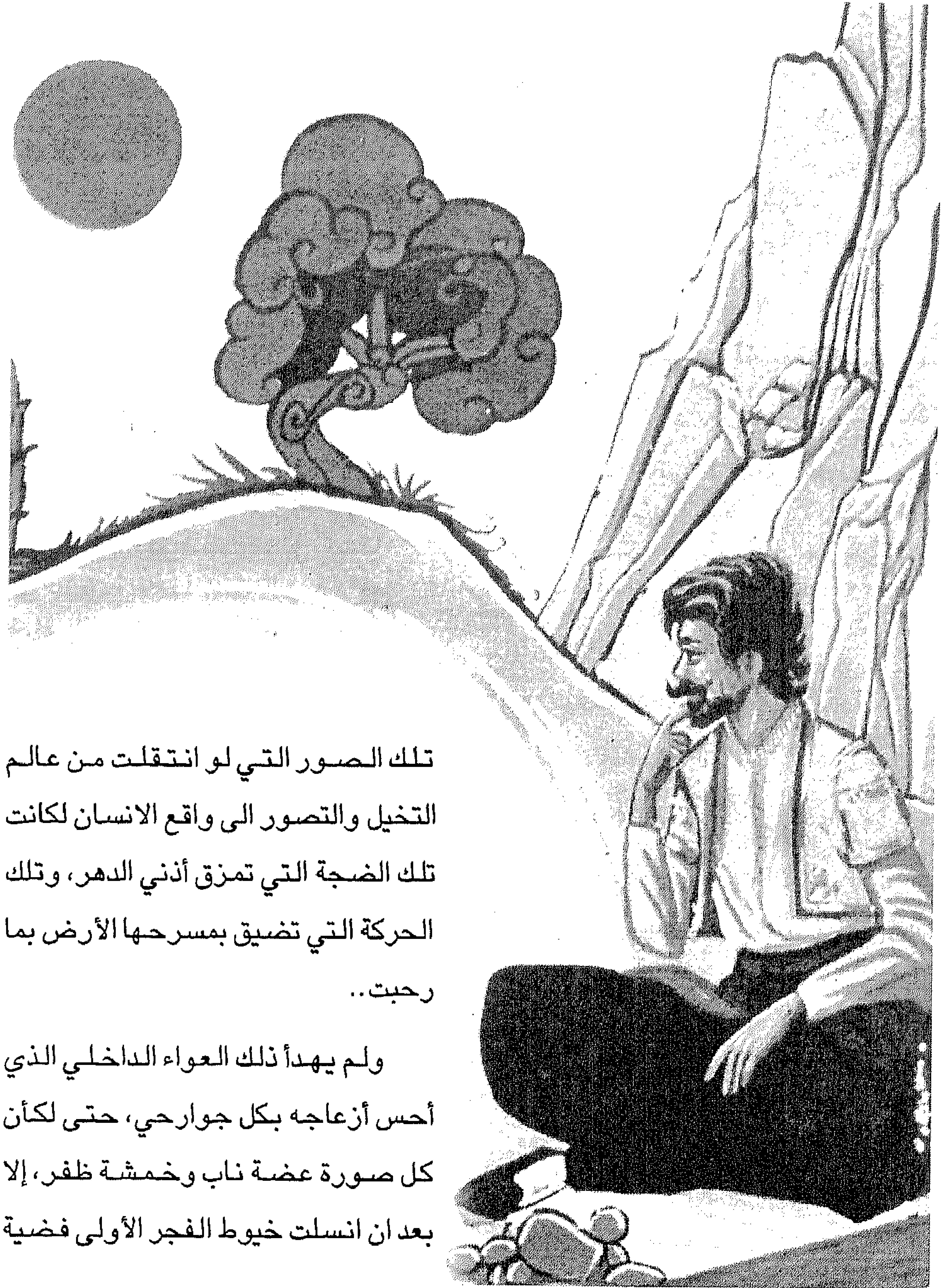
هواجس النفس

ولما استوفت نفسي راحتها وزايل التعب جسمي، قمت أخطر متمهلا في متعرجات تلك الروضة الغناء والجنة الفيحاء، أقطف من لذيذ ثمارها، وأعب من سلسبيل جداولها، والثمر يغريني بالأكل حتى الشبع، والماء يدعوني للارتواء، وأنا آكل وأشرب فأحس بتجدد القوة.

ومع أفول الشمس وانسحاب أذيالها عن جوانب الأفق الشرقي، وصعود رمز اللطافة والرقة الى علياء عرشه من قبة الفلك، شعرت بشيء من التعب والكلال يدب في اوصالي، فلم أرَ خيراً من الاستلقاء أرضاً، والتحديق في هذا الفضاء غير المتناهي، والهواء المشبع بالعبير الفاغم قد أخذ ينسل الى كياني لطيفاً خفيفاً متناهياً بالرقة التي غلبتني فأثقلت شعوري، فأغمضت عيني مستسلماً لسلطان الكرى لا أشعر بأي شيء يدور حولي..

وبعد ان أخذ جسمي حقه من الراحة بعد التعب والعناء، أخذت اتقلب في مكاني على ذلك السرير الطبيعي من العشب الأخضر الطري، وقد انقلب تحتي خشناً بعد تلك النعومة كأنما استحالت أوراقه الغضة الى ابر حادة مسمومة، إذ أخذت الأفكار تتوافد لذهني، لائماً نفسي اشد اللوم على ما حملتها من مشقة الاغتراب، ومآس وصعوبات، وأهوال تجذبني الى شفا اليباب، فطفقت أتلوى في مكاني. لا أعرف للراحة معنى ولا للاطمئنان النفسي سبيلا، ناعياً على ذاتي نكران نعمة الله التي تسربلتني فنضوتها عني لألبس حلة التغرب حتى لا وطن، والضياع حتى لا زمن، لا أرى غير شروق الشمس وغيابها، وبزوغ القمر وأفوله ولكن على لا معنى أو فحوى... وماذا يعمل المرء حتى بالجنة اذا لم يكن للفردوس مجتمعه واناسه!..

ولبثت على هذه الحالة عدة ساعات أرهقتني بكل اعباء سنيّ كدحي وشقائي، والاهوال التي عانيت والمشاق التي كابدت، لا اعرف كيف تتفتق حافظتي عن



تلك الصور التي لو انتقلت من عالم التخيل والتصور الى واقع الانسان لكانت تلك الضجة التي تمزق أذني الدهر، وتلك الحركة التي تضيق بمسرحها الأرض بما رحبت..

ولم يهدأ ذلك العواء الداخلي الذي أحس أزعاجه بكل جوارحي، حتى لكأن كل صورة عضة ناب وخمشة ظفر، إلا بعد ان انسلت خيوط الفجر الأولى فضية

بيضاء في قلب تلك الظلمة الطخياء.. فانتفضت منتصباً على قدمي بعد ان أخذت أتبين مواضع الوطء، هارباً من تلك الوحشة النفسية التي ما بعدها وحشة، وتلك الظلمة الباطنية التي كادت تذهب بلبي وقد استخفت حلمي وأتت على أناتي..

وشرعت أستحث قواي الباطنية جهد طاقتي، متملياً هذا الجمال الأخاذ، مقاوماً كل عوامل اليأس، مكافحاً سائر عناصر القنوط، حتى عادت الآمال تثوب راجعة الى نفسي مالئة جوانبها ملء الضياء.. ورحت أجوس متوغلا أنحاء الجزيرة، والريح العليلة تهب ناعمة على صفحة وجهي فأتنسمها اكسير حياة، فيما كان بحر تلك الزهور المؤتلفة الالوان المختلفة الاشكال المتعددة المناظر، تموج تحت قدمي برقة ونعومة وخفر ودلال..

وهكذا تفتحت زهور نفسي على رؤية تلك الزهور، وهبّت الطير من مراقدها ترفرف بجميل أجنحتها، آخذة بالتغريد في صلاة مقدسة لهذه الطبيعة الحانية، يكمل تلك الجوقة الفذة التكوين خرير النهر وحفيف الأوراق... واستغرقت في حلم فيه معنى النشوة وروح المتعة، مما أنساني ما كنت عليه من هم وبلبال ووساوس واضطراب بال، فرفعت عقيرتي بأغنية من الأغاني البغدادية الظريفة التي اجتمعت فيها عبقرية كلم النوّاسي موقعة على الحان الموصلي..

الشيخ الوقور

وفيما كنت بتجوالي الهادىء الممتع، فغرت فاهي وانا اقترب من حافة الجدول، على رؤية اول انسان في هذه الجزيرة وقد جلس على الضفة يطيل النظر في الماء الجاري هادئاً ساكناً كأنما قدّ من الصخر...

وهرعت اليه وقد أيقنت بأنه قارب النجاة الذي سيخرج بي من هذه الوحدة الى العالم والناس والدنيا الفسيحة العمرة بالحركة الغامرة بالبركة، حتى إذا كنت

أمامه وجهاً لوجه، ألفيت نفسي حيال كائن ناء بأعباء السنين، منطوياً على ذاته منحنياً انحناء القوس، وقد جلس محبياً واضعاً يمينه الى جبهته في حالة تفكير وتأمل، ما رآه الداني بلحيته الثلجية المسترسلة حتى بطنه إلا قال انه التاريخ حياً..

ووقفت امامه متهيباً شيخوخته ووقاره، وغياب عينيه الصغرتين الكليلتين في محجريهما، وقد كادتا تغيبان خلف حاجبيه الكثّين الأبيضين، لا سيما وقد اختار لجلسته صخرة مرتفعة قليلا على حافة الجدول، فكأنه في جلسته تلك ينظر الى الكون من أعلى قمم المعرفة... وحييته فردّ على تحيتي بانحناءة مهيبة من جليل هامته أغنتني عن كل عبارة سلام، وسألته بلهجة ضارعة عن وجوده في هذه الجزيرة، وهل تنتهي بالعمران، فنظر اليّ نظرة باسمة جاذبة نفذت الى اغوار اعماقي، فغضضت طرفي متهيباً، لاعناً نفسي على تعجّلي.. وبادرت الى اخراج نفسي من هذه الورطة بسؤال ينفي السؤال الأول: «وهل من حاجة اقضيها لك يا شيخي الجليل؟..» فأشار اليّ إشارة ناعمة بطرف بنانه أن انقلني الى الضفة الثانية من الجدول..

واهتبلت الفرصة مسرعاً لخدمة هذا المسكين، وجلست القرفصاء موطئاً له ظهري، مقترباً جهد طاقتي من الصخرة تسهيلا له بالنزول، طالباً الى الله أن ينفعني بدعاءبركته القلبية، وأن يقيض لي من هذا الضيق مخرجاً..

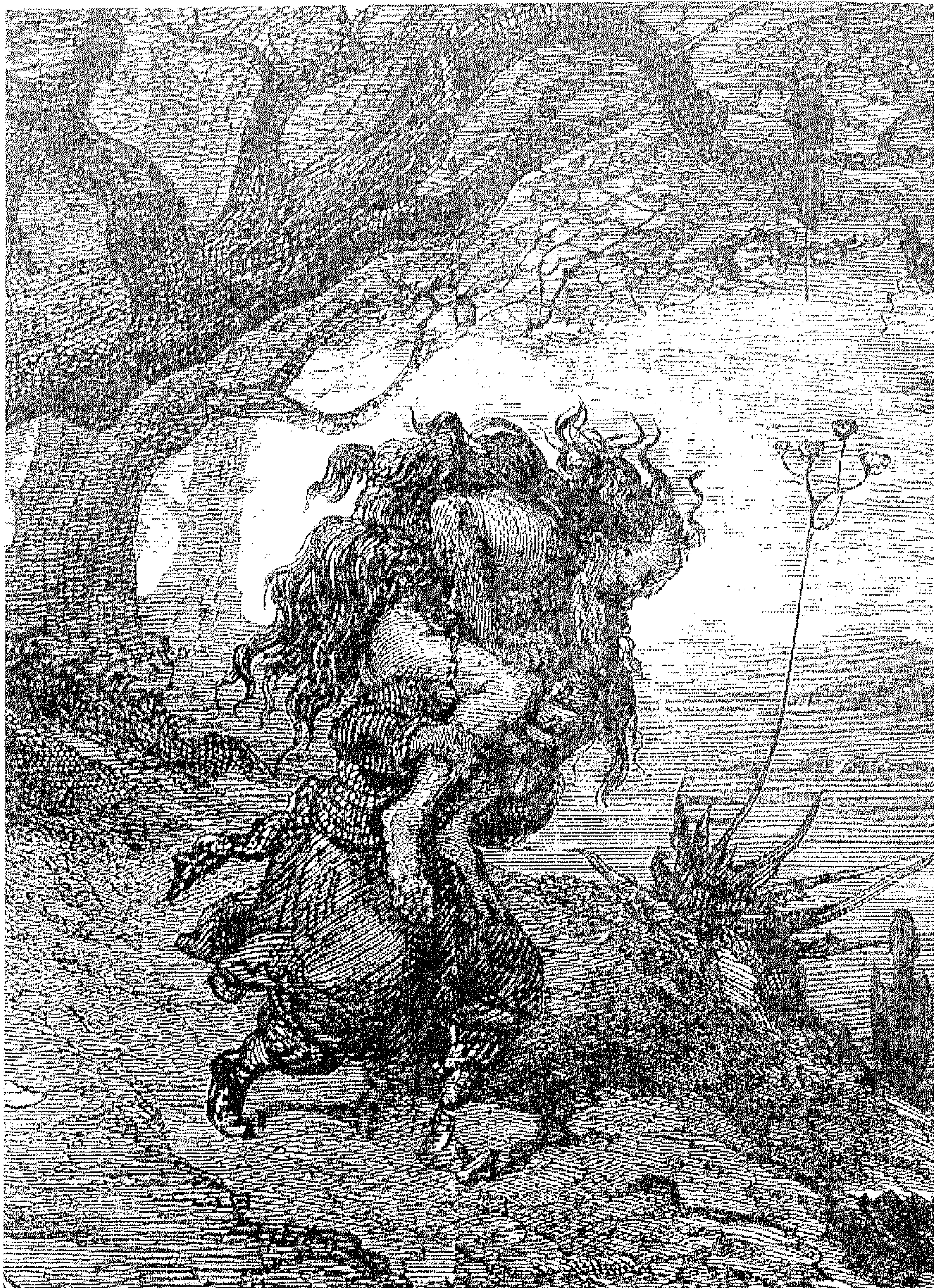
ارتقى الرجل كاهلي بمدة أسرع مما كنت أتصور لما هو عليه من الشيخوخة، وخضت به الجدول وأنا اسأل الله العون لكل مقعد وضعيف عاجز... ولما بلغت الضفة الثانية انحنيت الى الارض لأسهل على العجوز النزول، ولكني جفلت على وكزة بظهري آلمتني أشد الألم، وعوضاً عن ان يهبط الى الارض، اذا به يتربع على منكبيّ بأسرع من خفق جناح الطير، ولم أسترد نفسي من ذهولها وانخطافها لاسأل شيخي عما يفعل، لأنني ازددت

دهشة وحيرة اذ وقعت عيني على رجلي الرجل فاذا هما كثتّا الشعر، تشابهان قائمتي الثور، باستثناء ان ظلفيه ينتهي كل منهما بزائدة عظمية تماثل كل المماثلة المهماز الحاد الطرف..

وكان لتلك الوكزة الأليمة ردة الفعل الطبيعية، فأمسكت هاتين القائمتين بكل ما لدي من قوة محاولا أن أرمي به أرضاً وان أضع رجلي على صدره لا أرفعها عنه إلا وقد استللت انفاسه، ولكن ما ان حاولت ذلك حتى سقطت مغمياً علي، إذ تحولت هاتان القائمتان الى طوق أخذ يشد بخناقي، حتى اذا أدرك الرجل اني قاربت حالة الاختناق أفرج رجليه عن عنقي مسهّلا علي حركة التنفس، ثم لكزني لكزة نبهتني الى واقعي، ومدّ يديه الى الارض معيناً اياي على النهوض به وبقائه متربعاً على منكبيّ..

العجوز المخمور

وقد عرف اللعين كيف يروضني، برفسه اياي حيناً على بطني، ونخزي طوراً بخاصرتي، او باللطم المتواصل على قفاي، لكن كل هذه الأفاعيل ليست بشيء إذا قيست بالاطباق على عنقي، حتى غدوت شيئاً فشيئاً اطوع له من خاتم المرء بخنصره، واعتدت على طراز من العيش ليس اثقل من النفس منه، أسعى به نهاراً بين الاشجار الفيناء، متنقلا ببطء من شجرة الى غيرها، يأكل من ثمر هذه ويستظل بفيء تلك، ثم أراوح السير به بين السهل والغابة والتخويض في ماء الجدول، وفي كل مساء يوجهني شطر البحر ينظر الى عبابه المتلاطم، ينعم فيه النظر ويطيل التحديق، فتشعر نفسه بارتياح أحسه بتراخي اطرافه التي تغدو خانقة عندما يشتد به الغضب او يحتدم غيظه... وليعذرني سميّ اذا قلت له ان حمله الذي كان ينوء تحته ليس شيئاً ازاء هذا الحمل الرهيب الذي كاد يرهقني روحياً قبل ان يقتلني جسمياً، وهو لا يكف عن نخزي كلما أردت التروح أو التقاط انفاسي المبهورة، أعيش دائماً بفزع مقيم ورعب غامر، حتى اذا شعر



بالكلال في قعدته تلك او الملل من التنقل او بالحاجة الى النوم، اشار اليّ بالتوقف والقعود تحته ثم الاستلقاء ارضاً ورجلاه اللعينتان ملتفتان حول عنقي، أنام كما ينام العبيد المطوقون بالسلاسل حيث يسهل ايقاظهم من بعيد كلما شاء أربابهم..

وذات يوم فيما كنت أنوء بهذا الحمل الثقيل الذي قصم ظهري وقطع اعصابي، يرهقني نهاراً وليلا بظله، حتى غدا نومي لماماً وحياتي جحيماً مقيماً، إذا بي اعثر على يقطينة جوّفتها ثم ملأتها بعصير العنب المبذول في كل فج من فجاج الجزيرة، ثم وضعتها في أحد الاركان التي يتحتم مروري بها، وتركتها هناك أياما، ثم عدت اليها ففضت ختمها وقرّبتها من شفتي فاذا بي أتذوق خمرة بعثت النشاط في أوصالي والنشوة في قلبي، فخفّ عليّ الحمل الفادح والعبء القاتل، وسعيت ركضاً بالعجوز كأنما استحال الى لفافة من القطن او كيس صغير من القش..

وأحس اللعين بما داخلني من النشاط والحركة وتوثب المرح، بعد ذلك الكدر القاتل وجرّ الخطو جرّاً كما لو كنت احمل تابوتي على كاهلي، فأراد ان يجرب حظه من هذا الاكسير العجيب، واشار الي باعطائه ما أشرب، ورشف منه رشفة تلتها جرعة، فاستطاب المذاق ولذته النكهة، فكانت الجرعة جرعات والترشف عباً... وما هي سوى ساعة او بعض الساعة حتى خرج اللعين عن طوره فداخل قلبه السرور وغمرت روحه البهجة وعمر نفسه الفرح، فطفق يغني منتشياً ويتأرجح علىٰ كتفيّ مهتزاً طرباً طافراً سروراً، حتى خيل الي كأنه طفل في مرجوحة..

وبينما كان الخمار يسري الى اوصال اللعين شيئاً فشيئاً، كنت في حالة من التيقظ والتنبه والاستعداد للعمل الحاسم في اللحظة الحاسمة، وما لبثت ان شعرت بالفتور والوهن يدبان في أوصال عجوز السوء، ثم برجليه الشديدتين تتراخيان حتى غدتا كخرقتين باليتين

متدليتين على جنبي، واهتبلت الفرصة فجمعت يديّ الى الامام ثم ضربت بكوعي الى الخلف، فسقط اللعين أرضا كما تسقط الثمرة التي أثقلها نضجها على عودها... وفي اسرع من لمح البصر كانت رجلي الشديدة فوق صدره، وانحنيت الى الارض فتناولت منه حجراً ضخماً ألقيت به فوق رأسه اليابس، فأسلم الروح بصرخة هزت أوصالي خوفا كما هزتها سروراً... ثم انطلقت في أنحاء الجزيرة لا أدري في أي اتجاه أركض ولا أية ناحية أقصد، غير مصدق انني غدوت حرا من هذا الحمل الغريب، وذاك العبء الفريد في الأعباء ولم اقف إلا على قهقهة جنونية طويلة ما يزال صداها يتردد في جوارحي وجوانحي كلما ذكرت هذه الحادثة المشؤومة..

المعركة الساخرة

وبهاجس باطني خفي، شعرت بنفسي أستحث الخطى نحو الشاطىء اللازوردي الذي كم كان الوقوف عليه مكرباً لنفسي مضيقاً على خناقي وذلك اللعين متربع فوق منكبي مرتاح النفس هادىء الاعصاب... واذا بالفرحة تتم فأجد نفسي تجاه رهط من البحارة قد استراحوا على الشاطىء في رحلة من رحلاتهم... ولما سألوني عن شأني وحدثتهم بما وقع لي أقبلوا عليّ جميعا مرحبين مهنئين حامدين الله الذي أنقذ هذه الجزيرة من «شيخ البحر» الذي كم غرر بأناس وخدع من بشر، بمطويّ ظهره ومبيضّ شعره، ثم اعتلى ظهورهم ليتحكم بعقولهم، يسوقهم تحته سوق الدواب، وما يزال يسومهم سوء العذاب وسيّء المعاملة والضرب والوكز واللكز والرفس على شاطىء البحر وضفاف الجداول وتحت ظلال الأشجار، حتى يقضي مطيته نحبه فيجلس على صخرته اللعينة تلك جلسة الصياد المتربص، وله من لحيته البيضاء وظهره المحني أمهر شرك وأدق شبكة.. وقد كنت الانسان الوحيد الذي نجا من براثنه.. وآن للبحارة أن يجوسوا الجزيرة دون خوف

ويتفسحوا فيها بلا وجل ويتنزهوا مستمتعين بخلاب مناظرها وساحر مشاهدها... وكان ختام حديثهم اليّ ان أمطروني بوابل من قبل التهنئة، ثم قمنا جميعاً فاستحممنا بماء ذلك الاوقيانوس غير المتناهي، وكانت لنا بعدئذ جولات وجولات في الجزيرة الفردوسية..

ثم كان لي لقاء مع الربان الذي رحب بي وأهل، مهنئاً اياي بالسلامة، راجيا لي عدم الوقوع ثانية بمثل هذا الشرك الذي كنت أول من أفلت منه.. ثم تهادت بنا السفينة متراقصة على اثباج الموج، وحياتنا جميعاً أغنية غير منقطعة، في أهازيج مستمرة على نقر الدفوف والرقوق، وان صرفنا شيء عن الغناء فضحكة لنكتة مستملحة ونادرة طريفة أو اقصوصة ظريفة..

وما زلنا على هذه الحال من الحل والترحال، حتى ألقت السفينة مراسيها في جزيرة من جزر المحيط الجنوبية تمتد فوقها غابة كثيفة من الأشجار الباسقة الذاهبة بتيجانها اغراقا في الفضاء حتى لكأنها نبات السماء وليست نبت الغبراء... لكنها ملساء القشرة لا يتسلقها الانسان إلا بخاطره ولا يرتقيها إلا بخياله، ولم تكن تلك البواسق غير شجر جوز الهند التي طالما سمعت من قبل بمخبرها دون ان اكحل الطرف بمنظرها.. وها اني والتجار والبحارة نقف الى جانب أصولها ونتطلع الى أعالي جذورها...

والتفّ حولي البحارة والتجار قائلين:

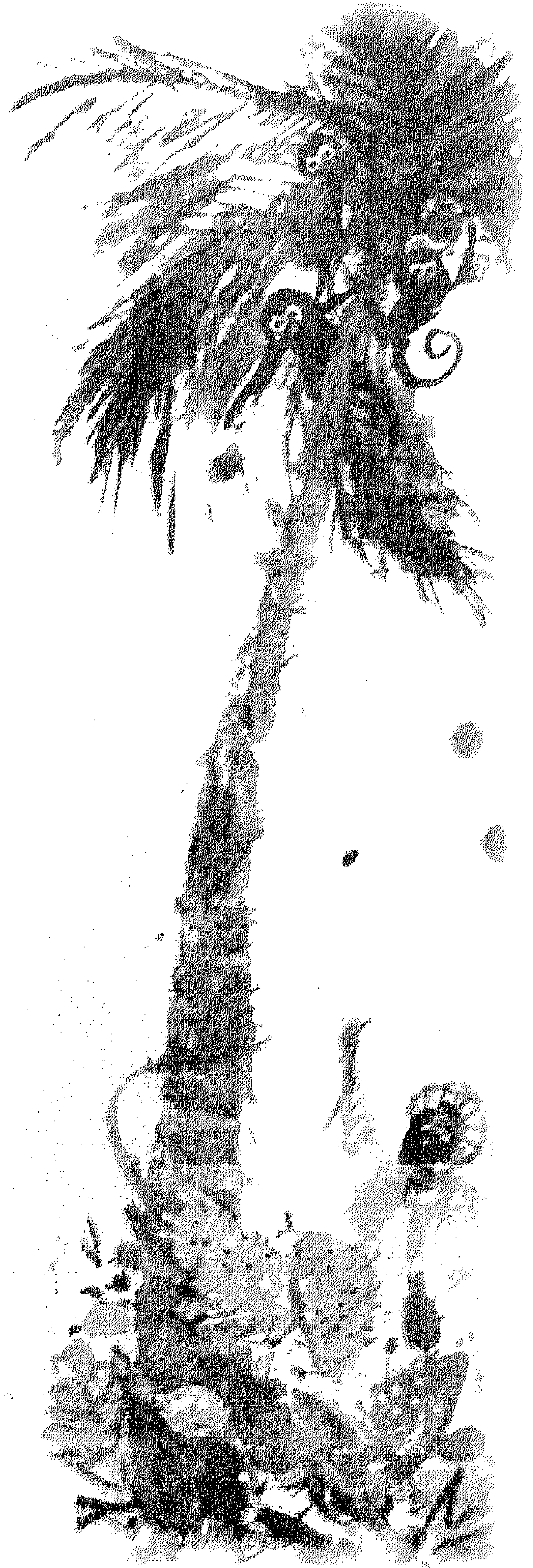
ـ لا شك انك يا سندباد مشارك ايانا في أعمالنا ومصائرنا! فما كان مني إلا ان شكرت لهم قائلا:

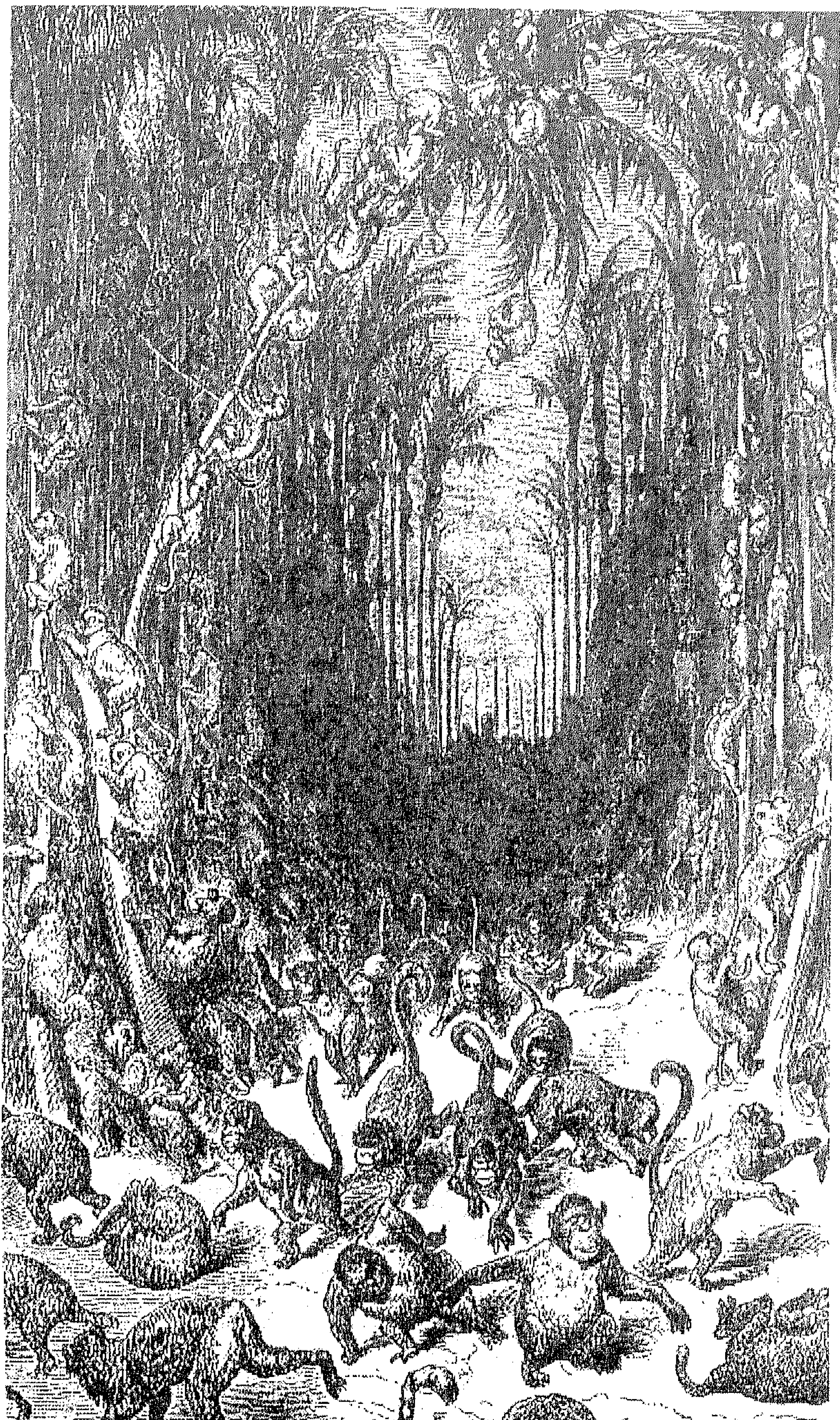
ـ ان دعوتموني الى ما أنتم فيه شكرت لكم، وان لم تدعوني فأنا شاكر أيضاً..

وكان لي بعد هذا الحديث كيس فارغ كسائر الرجال.. وأخذنا سبيلنا الى ناحية من نواحي الجزيرة، وكان رصيدنا هذه

المرة كميات كبيرة من الحجارة استقرت في اكياسنا، وسرنا بها حتى بلغنا نقطة معروفة لدى هؤلاء الرجال الأشاوس، فسمعنا ثمة ضجة صاخبة ولغواً غير مفهوم تطلقه زمر من القردة الجازعة التي أسرعت بتسلق الأشجار وكأنما أرجلها الأجنحة الطلقة السريعة الطيران، وما هي سوى لحظات قلائل حتى كان القردة فوق تلك الهامات المعقودة على حبات جوز الهند وكل جوزة بقدر البطيخة الكبيرة.. وصرخ احد التجار صرخة أجابتها صرخات، وتلت تلك الصرخات رشقات من الحجارة، فكان جواب القردة علينا وابلا منهمراً من جوز الهند..

واخرج واحد من التجار من جيبه مقلاعاً وضع فيه حصاة ثم صوّب نحو كبير القردة، وتمكن الرجل لحذقه من اصابة ذيل القرد، فصرخ صرخة جنونية تلتها صرخات في معسكره، ثم تلت الصرخات رشقات غير متقطعة من جوز الهند، فلم يستطيعوا اصابة اي منا لأننا





عرفنا كيف نتقيها في مكامننا.. وشيئاً فشيئاً خمد أوار تلك المعركة الجدية الساخرة، الرابحة الخاسرة، وكانت حصيلتها امتلاء السفينة بتلك الثمار الدسمة الذكية..

ملك اللؤلؤ

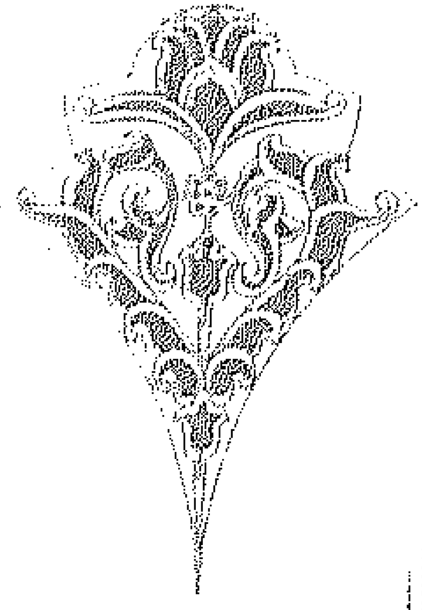
وأقلعت بنا الباخرة متجهة الى جزيرة لا يفضل أهلها على جوز الهند شيئاً، ولا تنتج تربتها غير الأفاويه من بهار وفلفل وقرنفل وقرفة، وتمت هنالك صفقة ما بيننا وبين اولئك الناس الطيبين الذين قايضونا أكداس الجوز بركام الأفاويه، فانطلقنا بها الى جنوبي الجزيرة العربية فبعناها بأسعار مرتفعة جداً، ثم عرجنا بعد ذلك الى الخليج العربي، وكان الوقت موسم صيد اللؤلؤ، فاستأجرت الغواصين الذين عملوا على حسابي.. ولا اكتمكم انني كنت في ذلك الموسم ملك اللؤلؤ غير المتوّج.. وكان تكحيل طرفي بلؤلؤة اخترتها من تلك الخرائد كافياً لجلي كل ما علق نفسي من أوضار تلك الرحلة ومشقاتها، وحفنة صغيرة من هذا الكنز البحري الذي استقر في صناديقي تعادل قيمة سفينتي الغارقة التي لا املك غير طلب الرحمة والغفران لأرواح بحارتها الشجعان، ولا سيما ربانها الذي هيهات أن يجود الدهر بأخ بصدقه ورفيق باخلاصه..

وهنا تدحرجت دمعة حرّى من عيني سندباد، واختنق صوته للذكرى المؤلمة وهو يقول بصوت متهدج:

ان موعدنا الغد لأقص على مسامعكم أنباء مغامرتي السادسة!..

وانفض المجلس على موعد اللقاء المضروب.. وكان وجوم القوم صلاة صامتة على أرواح اولئك الشهداء الذين لم يروا نور الحرية حتى غيّبهم البحر في أعماقه..

ولم ينس السندباد التاجر ان ينفح سميّه الحمال مبلغه المعلوم، كيساً يضم مائة دينار!..





نفق الموت

وجلس اخوان الصفا في الموعد المضروب حول محدثهم وسامرهم، يسقيهم كؤوس تجاربه صبوحاً وأكواب مغامراته غبوقاً، يحدثهم في حديثه سحر العبارة ولطف الاشارة والدرس المفيد، يزيد روعة تلك الجلسة وجمالها، غناء المغنين وعزف العازفين، وينفلت سحر اللحن عن وتره، وينتشي المنتشون، ويكون مهرجان للفنون... حتى اذا بلغت النفوس منتهى رضاها، ونالت من بهجة الدنيا مناها، في تلك الجلسة التي التأمت على المتعة البريئة والعبرة المفيدة، وساد الصمت بعد صاخب الضحك، اشارة من القوم عن استعدادهم لسماع احاديث تلك الملحمة البشرية التي عاشها فرد كأنه في نفسه الكبيرة جيش كامل العدد سابغ العدة..



واعتدل السندباد في جلسته قليلا، وابتسم لسميّه ابتسامة خفيفة ثم قال:

قد يداخلكم العجب ولا ريب، ايها الاخوان الكرام، كيف أجرؤ وقد عانيت ما عانيت من أهوال وصعاب، وقاسيت ما قاسيت من مصائب وكوارث، على القيام بمغامرتي السادسة التي كان باعثها عاملا خارجاً عن ارادتي، وحافزاً جعلني أنسى كل ما كابدت لأكون قدوة ومثلا..

لقد اراد الله ان يقضي شيخ تجار بغداد نحبه، وهو أخ عزيز علي، تغلغل حبه في سويدائي لما مدّني به من النصح والارشاد حين توفى الله والدي، وجنحت عن الطريق السوي والسبيل الصالح..

وكان لهذا النبيل فتى لم ينسلخ كلياً عن عناصر الحداثة، ولم يدخل جدياً في طور الرجولة، وقد سار في سبل الغواية التي سرتها، وانتهج طرق الضلالة التي نهجتها، وتكاثر عليه رفاق السوء وبطانة الفساد فترك نفسه الأمّارة بالسوء

مسترسلة في شائك الدرب الذي كان سيؤدي به ولا خلاف الى الفاقة والبؤس والشقاء..

وفي ذات يوم دخل عليّ حاجبي وهو يقول: «امرأة في الباب تطلب مقابلتك ياسيدي...» فلم يسعني إلا القبول والترحيب كما يقضي بذلك واجب المروءة، وما كان ابلغ دهشتي وجزعي حين رأيت امرأة وقوراً مجللة بثلج وقائع الأيام، تدخل عليّ حجرتي الخاصة حافية القدمين سافرة الوجه محلولة جدائل الشعر وقد أرسلته على صدرها كأمرأة ثكلى وكائنة ولهى، وهي تهتف:

ـ أي بنيّ... أي سندباد ذا العزم الوطيد والخلق الرشيد.. انقذني.. انقذ ابني..

ـ جعلت فداءك يا أختاه وابقى لك الله وليدك ذخراً وعضداً..

ـ ذخراً لي وعضداً... وأوصاف داري على لسان الدلال مطروحة في المزاد العلني يا سيدي؟..

ولم أستطع إلا ان أخفف عن المسكينة عبأها، وأرسلت في الحال وراء هذا الغوي السادر في عالم الضلالة، وكانت الكلمة النصوح والعبارة المهذبة واستحضار روح الفقيد الذي انتشلني من الهوة التي ترديت فيها، ومدّ يد العون المادي له، ثم أمري إياه بالاستعداد للقيام برحلة أكون فيها رائده وموجهه..

وهكذا عادت صفحة المغامرة للنشر بعد طيّها، ومآثر البطولات لتترجم عن ذاتها بذاتها في دنيا الواقع، ولا يستغربن احد منكم ايها الاخوان اذا قلت لكم انني حينما رأيت الشاب الضال واقفاً امام والدته المكسورة الخاطر الهاطلة الدمع، استهواني حب المغامرة مجدداً، فشحذ عزيمتي وجدد نشاطي ودفعني الى خوض غمار اللجّة دفعة واحدة..

ورغبة مني في الكشف عن اسرار التجارة لهذا الغر، فقد رأيت ان تكون رحلتي هذه برية بحرية، تقوية لعوده وشحذاً لارادته.. وكان انطلاقي البري عبر بلاد فارس، طلباً لبلاد الاسرار

والعجائب، والكنوز والغرائب، من اصقاع الهند التي يضلّ الخيال في معالم حضارتها وعمرانها، والفكر في كنوز حكمتها وفرائد فلسفتها...

وفي كل خطوة نخطوها ومرحلة نقطعها درس عميق للفتى الذي اكتهل خبرة وتجربة، وهو بعد في اول ازدهار شبابه وتفتح نوار فتوته، فكان لي بثمابة الابن البار، يأتمر بأمري ويعمل بنصحي، ولم تطل به الأيام حتى تثقف عوده واشتد ساعده، وكانت له جولاته في عالم التجارة، يخوض غمارها وينغمس في تيارها، يعقد الصفقات ويجول في ميدان الربح الحلال جولات وجولات..

النهار المظلم

وفي وقفة لنا مشتركة مؤثرة، مطبوعة بطابع التأمل والتروي وانعام النظر وامعان الفكر، على ساحل البحر وقد عبّ عبابه وتلاطمت أمواجه، هتف بي الشاب قائلا :

ـ والآن جاء دور المغامرة البحرية وركوب غارب الماء يا عم!..

ولم أقدر إلا أن أنفذ رغبة الفتى الذي كان لي بمثابة الولد الحقيقي، صدق عاطفة وتدفق شعور، لا سيما وانه يعيش حداثتي بالذات، مغامرة وتجارة، ربحاً وخسارة، انطلاقاً في ميدان اللهو فخوضاً في غمارة الحياة القاسية..

وفي يوم من ايام الربيع الهندي، فتر هواؤه ومتعت شمسه استقبلت وابني بالتبني سفينة شراعية لم يخفق شراعها إلا بعد الرحلات الموسمية الطويلة، تتنقل ما بين الجزر المتباعدة تنقل الطيور في الاجواء تزحمها جناحاً لتعود آوية إلى اعشاشها، وروحها زقزقة نزقة وتغريد متصل، واحتوت الغمرات المحدقة بالسفينة الجبارة تنفخ فيها الريح ويتطامن من نحتها الموج، لا ترسو إلا لتمخر، ولا تقف إلا لتتحرك، تواكبها طيور النورس مرافقة الحاشية الامينة لملكها العادل، وانا سعيد كل السعادة لما

يبذل ابني المتبني ـ الذي كفّ عن تسميتي«يا عم» لينعتني«يا أبي» ـ من جهد وحركة ونشاط في أوساط التجار المرافقين او في الاسواق العمالية.. أرقبه أبداً بعين حادبة ونفس عطوف، ثم استحال الحب والعطف الى اكبار لمقدرته وتعظيم لشأنه، واثقاً كل الثقة بأنه سيكون سيد تجار بغداد غير المنازع ورب السوق غير المضارع، وانه سرّ أبيه عن حق وخليفته في نشاطه وأعماله وطول باعه.. ولكن ما كل ما يتمنى المرء حاصلا، وما كل ما يرجوه محققاً، ولئن كان في الصحراء سراب فلعالم التجارة كذلك سرابه الذي كم ضلّ به ساع، وعاد نشيط مملقاً، وطوى الموت فيه الواقف على قمة هرم الحياة..

وانقضت بنا احدى الليالي، ولكن لم تنجل عن شمس نهارهاوانما كانت عتمة ذاك النهار أشد من ظلمة هاتيك الليلة.. وزحمت الغيوم جوانب الأفق وحواشي الجو، وتراكمت السحب اطباقاً اطباقاً، حتى نسينا عهدنا بالشمس، وارتمت الطيور مذعورة على جوانب السفينة وأطرافها، فوق الشراع وقمرة الربان وعلى اكداس البضاعة، وتلبدت خائرة الجنح منقطعة عن التغريد...

وتلا ذلك السكون المريب عاصفة هوجاء استاقت السفن الصغيرة أمامها كما تستاق الرياح رمال الصحراء، ألواحاً متناثرة وشظايا متفرقة وبضائع بدداً، وآمالا ضائعة على صرخات جارعة ضارعة..

ابتسامة اليأس

أما سفينتنا الجبارة فقد خرجت عن خط سيرها، لنعيش قلب العاصفة وروح الاعصار، تتقاذفنا الريح ذات الشمال وتتلاعب بنا الامواج ذات اليمين، والربان على شديد بأسه وقوة جلده لا يستطيع ان يتحكم بدفة القيادة ولا أن يبطىء سير السفينة الجانحة، ولم يفدنا إنزال الشراع الرئيسي او القاء المراسي كما لم يجدنا الارساء او الابحار.... ورأى المسكين ان خير مقاومة للضياع هي العيش في

غمرته ومنازلته في حومته.. وفكرّ هذا الباسل في ان مجاراة العاصفة أجدى من مقاومتها وأنفع، وان تحديها هو الموت المحقق، ومقاومتها هي مقاومة القضاء، ومنازلتها هي مصارعة القدر... ورغم افلات دفة القيادة من يديه ظل وراءها يصاول هذه الأنواء ويغالب تلك الأرزاء، تتعاقب علينا الأيام والليالي ونحن



كالأسماك السابحة ولكن في الشباك، والطيور المحوّمة ولكن في الاقفاص.. لا يدري الربان أيّ سمت يتخذ أو أية جهة يقصد، يمضّه التوقف كما يشق عليه الابحار، وهو لا يدري الليل من النهار...

وفيما نحن نضرب على ثبج البحر في بحران هذا الضياع، أطلت علينا الشمس من فروج غمامة رقّت حواشيها بعض الرقة، وكانت ذكاء كالعين الدامعة بخيوطها الباهتة الخالصة من ركام السحاب، ومع ذلك فقد استبشرنا خيراً، وأخذنا نعلل النفس بالأماني والآمال، واننا غدونا في نجوة من الهلكة وأصبحنا على شفا الخلاص...

ولكن فيما نحن فيه من الاستبشار بعد طول هذا الصبر والإنتظار، أقبل علينا الربان يغلب ابتسامة يائسة ممتقعة قد علقت بزاوية شفتيه كوردة ذابلة لا نضارة فيها ولا حياة، فانقلبت فرحتنا الى ترحة ورجاؤنا الى قنوط، وأخذ بعضنا يتطلع الى بعض وقد سيطر على الجو وجوم قاتل وسهوم مميت، نسائل أنفسنا: «كيف ترك الربان دفة القيادة وجاء إلينا كأنه الصنم يجرّ جراً أو يدفع دفعاً... كتلة من اليأس الأخرس الأصم!..» حتى اذا تجرأ احدنا على سؤاله: «خير ان شاء الله ايها الريس؟..» انفجر الرجل انفجاراً هائلا مطلقاً صرخات ذعر هائل، كثور طعين.. ولم يلبث أن رمى بعمامته ارضا يضرب كفا بكف، لتخمد فيه الحركة شيئاً فشيئاً، قد هدّ كاهله اليأس فرزح تحت عبئه لا قبس من أمل أو بارقة من رجاء..

انشودة الموت

وأسرع احد البحارة المغاوير، فاستلم دفة القيادة مكان القبطان المسكين الذي خبا آخر بريق من الأمل في حياته، وكان الربان الجديد من أصلب الناس عوداً وأقواهم شكيمة، فراح يوزع الأوامر ويصرف الأمور، متمسكاً بحبل الرجاء، عاملا على إنزال القلاع وطيّها والقاء كل المراسي دفعة واحدة في اليم... والبحارة أبداً أرجل ساعية وسواعد عاملة وقلوب واعية لما يقول هذا

البطل ويأمر، وقد شعروا بعبء الفادحة وعظم الخطب، إذ ألفوا بالسفينة واقعة في مسيل تيار جارف يدفعها دفعاً عنيفاً الى جرف فاغر الشدق عن الخطر الأكبر بل الموت الأحمر..

ولكن تلك المحاولة كانت عبثاً ضائعاً وجهداً عميقاً، إذ سرعان ما أخذت السفينة تترنح متمايلة صرعى، تصرّ صريراً مؤلماً كما لو قبع كابوس فوق كائن حي يستلّ انفاسه استلالا.. وكانت روح العاصفة الغضبى والاعصار الهائج في هذا التيار الجارف أخف بكثير من سرعة البحارة وقوة مقاومتهم.. ولم تلبث ان تهاوت الصواري وتمزقت الأشرعة، وتفككت السفينة ألواحاً محطمة وشظايا متفرقة، مرتمية على سفح جبل شاهق في ارتطام أشبه ما يكون بافلات مارد مجنون في معمل للزجاج...

وتطلع بعضنا في وجوه بعض، وكان عددنا قد تدنّى الى ما دون النصف، وتلفّت انا فيما حولي منادياً: «حسن.. ابني حسن..» ولكن كان الجواب على ندائي هذا هزة رأس الربان الذي لم يشأ أن يتحرك من المكان الذي قذف اليه: «لن تسمع لحسن جواباً.. لقد ابتلعه الموج... رحمة الله عليهم جميعاً.. لقد خفف الله عنهم العذاب فماتوا غرقاً، وما علينا نحن، وقد نجونا من الغرق، غير ان يحفر كل منا قبره بيده، لأنه لا رجاء بالنجاة!» ثم جلجلت ضحكته مدوية صاخبة، فيما كنا نبكي ونطيل البكاء، ونتحسر وتمتد بنا الحسرات..

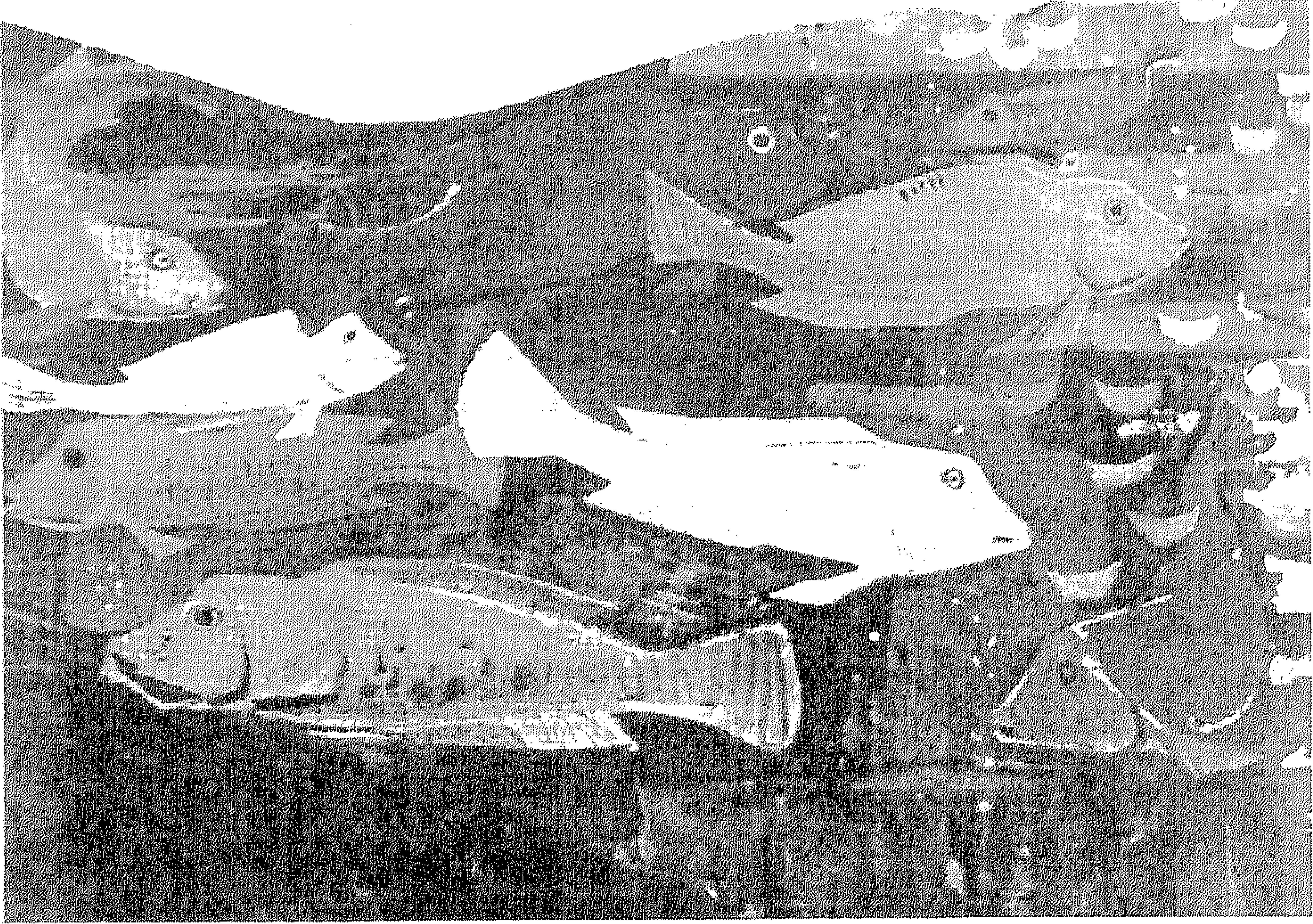
ونظرنا الى ما حولنا فألفينا المكان الذي دفعنا اليه التيار سفحاً لجبل يمتد كلسان من اليابسة في قلب البحر، مشكّلا الواجهة الامامية من جزيرة يغيب الطرف فيها، مفصولا عنها بخط انهدامي واسع لا مجال لاجتيازه ولا سبيل لارتقائه، وعلى ذلك فهو منقطع عن العالم انقطاعاً كلياً.. وهنا وهناك مشاهد ومناظر تخرج المرء عن طوره وتدفعه لاستعجال نهاية حياته، ولا سيما عندما يدير المرء ناظريه في هذا السفح فلا يرى إلا هياكل بشرية وعظاماً آدمية، وأشلاء ممزقة، وبقايا

أمتعة منثورة، في ركام من البضائع لا يحيط بها احصاء، وكل رزمة خاتمة لحياة تاجر ماهر، وكل مزقة صفحة من سيرة بحار مغامر، يتربع فوقها غراب ناعق او بوم ناعب، والجو على مدى الطرف جناح ممدود او منسر محدد لصقر جارح أو نسر سارح.. وما النعيق والنعيب غير انشودة الموت المفزعة التي ملأت علينا واقعنا ودهمت أحلامنا، فغدونا نستعجل الابدية، وقد حفر كل منا قبره كما أشار علينا من قبل ذلك الربان الباسل الذي كانت قهقهته الجنونية رمز العقل الساخر في قلب الأرزاء، والمستهزىء في مدلهم العاصفة، في موقف هيهات ان تتحدى قواصفه إلا الضحكة العاصفة!..

شبكة القدر

وكان أكثر ما أثار فيّ الدهش والاستغراب ان في هذا المكان نهراً، ولكنه ليس كالأنهار التي تنبع من اليابسة لتغرق في اليم الكبير، إنما يأخذ سبيله من تيار بحري ليتغلغل في باطن الأرض عبر غار لشد ما تعبت بتجميله وتزيينه يد الطبيعة الصناع.. غار ان تمليته من الداخل لما خالجك الشك في انه قاعة امبراطورية تضيئها تلك الأعمدة النورانية المتدلية من السقف والمنبعثة من الجدران على شكل مصابيح اين منها تلك التي تجود بها أيدي الفنانين الماهرين، وأين ألق الزيت المحترق بأسرجته من توهج الياقوت الاحمر وائتلاق الدر الابيض مؤتلفاً والزمرد الأخضر، يتوهج نوراً دون ان تجود السماء على هذا النفق الأرضي بدفقة واحدة من الضياء...

وأجمل ما في هذا الغور الباطني من مشاهد، السمك العجيب المختلف الألوان المتباين الأشكال المولع بتلقف الماء من نبع جانبي، ذلك السائل الذي يدخل أفواه تلك السابحات ويخرج من غلاصمها، الا وهو لآلىء لا أصداف لها، زاهية براقة تعوم في الماء قليلا ليقذفها المد بعد ذلك إلى الشاطىء تنتثر على جوانبه انتثار الحصى.. وهي لآلىء ما رأتها امبراطورة



إلا ذعرت فتلمست جانب عقدها.. ناهيك عن نبع آخر لا يخرج سائله من جوف الارض إلا لينعقد على نفسه بشكل شجيرات صمغية تأخذ بالجفاف لمجرد ملامستها الهواء، عنبرية اللون كافورية الرائحة، فيها شيء من سر الند، بل كأنها أكسير ألف زهرة وزهرة، تسحر الطرف بمنظرها، وتخلب اللب بمشهدها، وتحير الذهن بعبقرية تكوينها!..

ولكن الى جانب كل تلك الكنوز، وضخامة هذه الثروات، كان الجو مشحوناً بطيف الموت، على ذلك السفح الذي تستحيل فيه الحياة، ولم تفض نفس الى بارئها إلا توزع الجسد في بطون سباع الطير الواقفة لنا بالمرصاد، وما ان اقتربت سفينة من تلك الهوة إلا ذهبت بدداً والواحاً متفرقة ودوائر متناثرة، بتيار فيه قوة الرياح المعولة المتناوحة

والعواصف المجنونة الهوجاء، ملتقياً بتيار معاكس لا يتصادمان إلا على الموت الزؤام وطي النفس المغامرة بحلة الحمام الكامن في كل منحنى من منحنيات هذا الغور السحيق، وفي منعطفاته المؤلفة من نواتىء صخرية هي والأسنة المدببة سواء بسواء.. وعلى ذلك كان التجهم والعبوس يطلان من ناظري كل منا، انعكاساً لتجهّم هذه الطبيعة الصاخبة المعربدة على متناثر هذه اللآلىء وتوهج تلك اليواقيت...

وهل الياقوتة بشيء بالنسبة الى كسرة الخبز الجافة لبطن الجائع؟.. أليست حبة واحدة من العنب خير من جميع لآلىء هذا المكان لمن هو في وضعنا؟.. اما بضعة اللحم فهي كنز الكنوز وذخر النفائس في هذا السفح الذي كان لنا بمثابة شبكة القدر، نتخبط فيها تخبطاً ونضطرب اضطراباً، ولا يزيدنا التخبط والاضطراب إلا نقصاناً بالعدد وضعفاً بالحيلة، وجراً الى هوة اليأس السحيقة والقنوط القاتل.. وهكذا نظرت ذات يوم فيما حولي فاذا بي الكائن الوحيد الذي يتردد نفسه في صدره، ويحس ويشعر ويتألم ولكنه رغم ذلك يأمل ايضاً.. وبالتبلغ من زاد الامل وحده أمكنني ان أظل حياً لا تؤثر فيّ النظرات الشذراء التي تحدجني بها الغربان والرخم..

على بساط من خشب

ولاحت مني التفاتة فرأيت سرباً من الغربان يطير مذعوراً عن جثة صديق لي على اثر هبوط صقر عليها، وفي منقار كل غراب أو بين مخالبه فلذة من لحم أو جزء من جارحة، فهزّ المشهد كياني هزاً، وهتفت في أعماقي: «الموت غرقاً خير بألف مرة من هذه النتيجة!..» ونظرت نظرة التحدي الى السراب الجائع أبداً الى لحمي المتعطش لدمي.. وخطرت لي خاطرة في عباب ظلمات اليأس هذه فرددت في سري الآية الشريفة: «فلا تكن من القانطين».

ولـن تـتـردد فـي خـاطـري هـذه الآيـة الكريمـة إلا ورأيت وحشـة هذا المكان قد انقلبت انسـاً وهيجان تياره قد جرى وئيداً رقراقاً، وخوفي استحال امناً، واضطراب نفسي غدا هدوءاً وسكوناً ويقيناً برحمة الله.. وقد تولد في نفسي روح جديدة مشرقة بأمل جديد... وهكذا قمت من فوري فشددت بعض الألواح المتناثرة من السفن المحطمة، جامعاً بعضها الى جانب بعض، ثم ألقيت نظرة طويلة الى تلك اللآلىء واليواقيت المنثورة على الشاطىء، فجمعت منها أكداساً أكداساً، وبدفعة واحدة كان ذلك البساط الخشبي يطفو على سطح التيار وأنا فوقه وكنوزي الى جانبي..



ودار بي بساطي العجيب دورات سريعة على سطح التيار وانا أجأر الى الله بالدعاء، مستعجلا رحمته، ولم يلبث ان اندفع في مجراه داخلا بي ذلك الكهف الذي لم تطبع فيه الشمس قبلة واحدة، ولا عرف الضياء الى جوفه سبيلا، ومع ذلك كان يضيء تلقائياً بأحجاره الفوسفورية ولآلئه الدرية، وبمنبجس مائه الشمعي الذي يتجمد على شكل القناديل والمصابيح حتى كأنني في مكاني ذاك تحت الارض كنت أتملىّ الشفق القطبي او شمس نصف الليل التي طالما تغنّى بها الشعراء، ودبّج المقالات بوصفها الأدباء..

وخشيت ان يمر بي البساط في مكان منخفض فأقذف ساقطاً عنه، فعمدت الى الانبطاح ماسكاً بيديّ جانبي فراشي الخشبي وقد جمعت صرر كنوزي ما بين رجلي، رافعاً رأسي قليلا عن مستوى جسمي، والتيار يدفعني في اعماق الكهف طوراً دفعاً عنيفاً وتارة دفعاً خفيفاً، والسمك يهرب من طريقي فزعاً مضطرباً منشغلا عن صوغ لآلئه ومجّ دراريه بانسرابه تحت الماء بالسباحة العميقة.. ومع ذلك لم تكن تلك الرحلة، وكأنني فيها على بساط الريح، لأن سقف النفق كثيراً ما تطامن وانخفض فأحدث الجلطات والجراح في انحاء مختلفة من جسمي ورأسي، إلا ان بساطي والحمد لله كان يندفع ويندفع في مجراه.. ولا أدري كم مرّ عليّ من الوقت، ولا كم انقضى من الزمن، لأن الخوف والتوجس كانا يجعلانني بشكل دائم مستيقظ الشعور، متحفز الاحساس، حتى استحال كل مسامة من مسام جسمي عيناً يقظة حذرة لما أنا فيه من خوف المصير الذي أخشى فيه سوء المنقلب.. ثم انني ما ترشفت جرعة من ماء هذا التيار إلا شعرت بتدفق النشاط والحيوية في عروقي، مبعدين عن جفنيّ سنة النوم..

هبة الله

وفي احد المنعطفات صدم رأسي صدمة قوية صرخت لها صرخة دوّت في

جوانب هذا النفق دوياً كأنه الآجال مجلجلا في مسمعي، ونزف الدم غزيراً متدفقاً يصبغ الماء من حولي، لكن تلك الصرخة لم تلبث ان علتها صرخات وصرخات فيها العنف والجنون والذهول عن الواقع، إذ انكشفت الدنيا امام ناظري مشرقة الشمس طلقة المحيا، واحتوى هذا المسيل من الماء الذي أخذ يجري بهدوء، ريف بعيد مرمى الطرف، تغمره خضرة نضرة واشجار باسقة وتراب هو نثار التبر.. لكن اجمل ما رأيت.. الناس.. وكانوا زنوجاً انقياء السريرة ميموني النقيبة، وهتفت بالقوم:

ـ السلام عليكم..

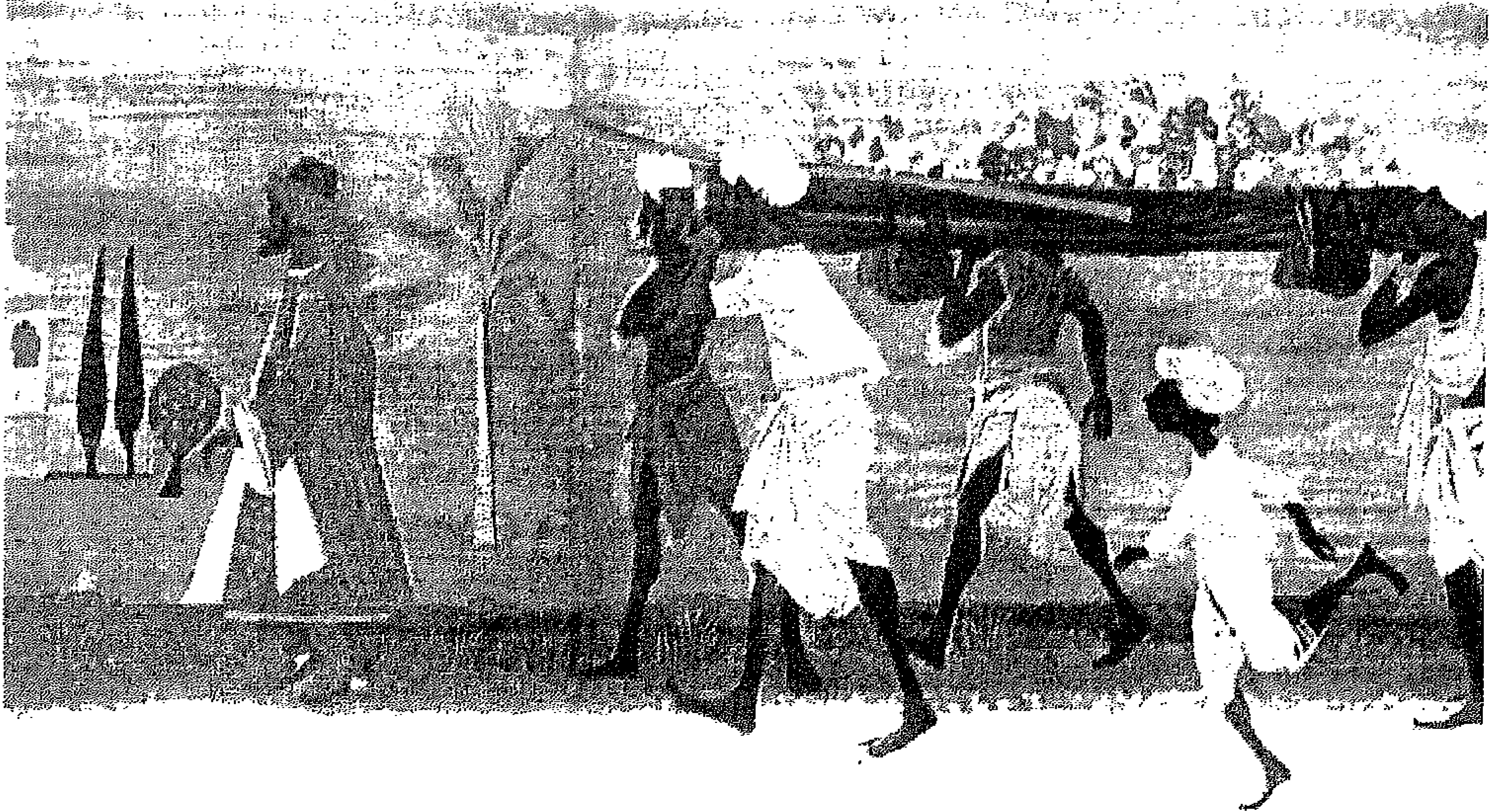
وجاءني الرد الجماعي صادراً من ألف فم وفم، وبالأحرى من ألف قلب وقلب:

ـ وعليكم السلام... سبحان من يحيى العظام وهي رميم!.

ونظرت فيما حولي فاذا انا نقطة الدائرة في هذا الحشد الحاشد من الفلاحين الذين ينظرون الي بنفوس مدهوشة وعيون مشدودة، وأنا أحدثهم حديث الرحلة المشؤومة والقاء نفسي في التيار المهلك، حتى اذا أتيت على نهاية الحديث أجابوني بلسان واحد:

ـ والله انه لقصة جديرة بأن تشنف آذان مليكنا العظيم..

وفيما ظل بعض هؤلاء الطيبين يعملون في هذا الريف البهيج عزقاً وسقاية، كنت على صهوة حصان مطهم يحفّ بي الفرسان من كل جانب في الطريق الى عاصمة هذه الجزيرة كأنهم يسيرون بي في مهرجان.. وكانت لي جلسة في حضرة ملك الجزيرة الذي بدا أشد دهشاً لسماع نبأ خروجي من نفق الموت على متن لوحين خشبيين.. ولم يزل دهشه إلا حين تقدمت منه وانا منحن انحناءة الاكبار والاجلال دافعاً اليه بعض كنوزي من اللآلىء البراقة واليواقيت الخلابة اللب واعواد الند وحبات الزبرجد النفيسة.. وقد رجوت هذا الملك الجليل ان يتقبل ما حمله فلكي هدية مني.. ولكن



الرجل الكبير ظل قليلا يقلب بين اصابعه جوهرة من جواهري اليتيمة ثم ردها الي قائلاو الابتسامة المهيبة تعلو شفتيه:

ـ قد قبلنا ما قدمته لنا من هدية يا سندباد، مكبرين فيك روح الرجولة والمغامرة الجريئة، وفي الوقت ذاته نعيده اليك بجملته لأن تلك الكنوز هي هبة الله اليك ولا نقدر ان نمسها، ولك علينا واجب الاكرام والإحترام وزيادة تلك الثروة من أعطياتنا الخاصة كما يقضي بذلك واجب المروءة والدين الذي هو العمل الصالح والكلمة الطيبة، وهذا ما عليه ربينا ومبادئه أشربنا، وأما كنوز الأرض فتبقى في الأرض.. ومع ذلك فنحن بحمده تعالى لسنا مفتقرين الى زخرف الحياة الدنيا..

قال الملك ذلك ثم اشار بيمينه الى جوانب قصره وهو يبتسم ابتسامة طيبة ذكية.. ونظرت حيث أشار الملك فاذا القصر لا يضاء بالمصابيح وانما بما

يتوهج من حجر العقيق وحبات الماس
وعقود اللآلىء التي لا تدري أتوقد ناراً أم
تتألق نوراً..



الحنين الى بغداد

وانتشلني هذا الانسان الكبير من بحران الخجل الذي اعتراني وأمر فأفرد لي قصر من قصوره كنت آوي اليه اذا ما جنني الليل، اما النهار فكنت أقضي سحابته مختلفاً الى قصر الملك الكبير، او متنقلا في احياء المدينة أشهد معالمها وأقف على معجزات بنائها، حيث أشبع فضولي وأبهج النفس بما أرى وأسعد بما أسمع ولم أكن أنىّ ذهبت وحيثما حللت إلا موضع التكريم والتعظيم..

وكثيراً ما كنت اقصد ظاهر المدينة متنقلا بين مناجم الياقوت الاحمر والمعادن الكريمة او مرتقياً جبل الماس أو قاصداً مصائد اللؤلؤ..

لكن اجمل ايامي في تلك الجزيرة تلك الساعات التي كنت أسير فيها منفرداً أقرأ سفر الطبيعة المنشور الصفحات آيات بينات لكل ذي عينين ناظرتين وبصيرة واعية وقلب عليم، صعوداً الى ذلك الجبل المعقود الهامة بتاج الخضرة الدائمة والمائس السفح بسوق اشجار الفاكهة على اختلاف انواعها... فهبوطاً الى الوادي المنمنم الحواشي بكل زهرة عجيبة، فقعوداً الى مجرى النهر المنشد بجريانه السرمدي انشودة الحياة الخالدة، فطلباً للبحر أقف على شاطئه اللازوردي انظر بعيداً بعيداً، يخفق قلبي بألف تحية وتحية الى مسقط رأسي بغداد دار السلام وتاج دولة الاسلام..

وفي إحدى جلساتي على شاطىء البحر، خفق قلبي ذات يوم خفوقاً شديداً لخطور شراع على ثبج البحر، واحسست كأن مشاعري وأحاسيسي جميعاً منوطة به، فبقيت انعم النظر بكل خفقة من خفقاته وخطرة من خطراته، وهو يقترب مزهواً من الشاطىء على قرع الطبل والنفخ في الصور.. وهاج بي الشوق اكثر فأكثر الى معرفة هوية المركب الوافد، ولا سيما عندما تبينت أحد المقاطع من نشيد البحارة فاذا الكلام عربي مبين فخررت في مكاني ساجداً لله شاكراً آلاءه..

وهببت من فوري قاصداً القصر الملكي فلما بلغت اعتابه استقبلت الارض بجبهتي مطيلا السجود امام الملك الذي هتف باسمي:

ـ سندباد.. سندباد..

ـ سيدي الملك العظيم، لقد...

ـ لقد حنّ سندباد الى موطنه بغداد.. سيدي أشكر لك واستأذنك..

ـ لا شكر على واجب الضيافة يا أخي.. ومن لا يكن مخلصاً لقومه محباً لوطنه، فهيهات ان يخلص للاغراب وأن يكون وفياً لأوطان الآخرين.. فحب الوطن من الايمان..

سفير الملك

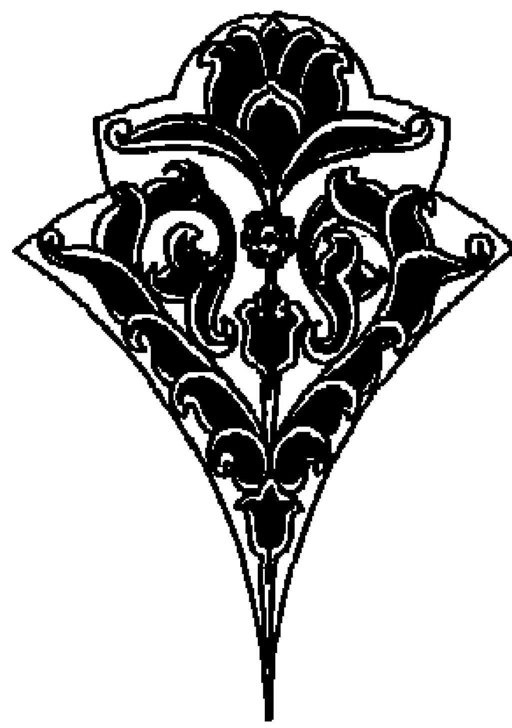
وأبت اريحية الملك العظيم إلا أن يقيم لي حفلة وداعية ستبقى وقائعها عالقة بذهني ما بقيت في قيد الحياة.. لا سيما وقد حمل لي جميع أصدقائي في تلك الليلة من الهدايا ما يشكل ثروة لا تقدّر بثمن، ثم جاءت هدية الملك فخبا بريق تلك الكنوز امامها كما يخبو بريق الكوكب في سفور وجه ذكاء.. ثم طوقني هذا العاهل الكبير بمنة لا أنساها إذ كنت سفيره الى مولانا امير المؤمنين هارون الرشيد، حاملا اليه رسالة خاصة مع هدية ملكية من نفائس الجواهر وفرائد اللآلىء ومقادير كبيرة من الطيب وأعواد الند وحب الكافور، لكن لكل تلك الجواهر والنفائس لا تعدل قلامة ظفر تلك الحورية التي هي الرسالة الحية من الملك العظيم الى العاهل الجليل، تلك الكاعب التي يبوح طرفها بسر السحر ويبسم ثغرها عن غالي الدر، تأسر الناظر اليها ان مشت، وتشغفه أن وقفت، هيفاء من غير نحول، عبقرية التكوين فاتنة الصورة، كأن كيانها توهج الروح الكامن على ألق الفجر، وضياء البدر، وأنفاس الزهر، وأما ما انطوت عليه من علم وفن فسفر ابداع وامتاع ومنبع حكمة وطاقة علم..

وكان اقلاع السفينة على ذكر الله، تتهادى بنا على غوارب الماء من ميناء الى ميناء، ومن جزيرة الى جزيرة، ومن

شاطىء ميمون الى شاطىء مأمون حتى استقرت نهائياً في المدينة التي ستبقى على الدهر ما بقي الدهر، البصرة العامرة، مفتاح بلاد العرب، التي يتطلع منها العربي الى الدنيا فيحتويها، وينظر اليها العالم فيرى نفسه منطوياً فيها، نهضة علم وفن حياة..

ثم كان انتقالي الى بغداد حيث أديت الامانة: هدية الملك الكريم الى العاهل العظيم، وقد اعتلج في نفسي قرار ألا اغادر تراب الوطن حتى يحتويني، وألا افارق هذا البلد الذي يأويني. ولكن.. ووراء هذا الحرف الفصل الاخير من سفر حياتي التي كانت رمز الشوق الدائم الى الطواف في الارض براً وبحراً، على ثبج الماء وضرباً في فيافي البيداء..

وهنا سكت المحدث العظيم اشعاراً بافتراق الشمل الذي سيجتمع في الغد على الرحب والسعة، والشد بيمين الوداد على يد حمّال بغداد..



الرحلة السابعة



رواد الفضاء

كان هذا اليوم واسطة العقد في حياة سندباد فتى بغداد وبحّارها المغامر، والقصر حركة طافحة بالسعادة ونشاط مفعم بالهناء، ان نظرت فيه طالعتك صور من البهجة ومشاهد للرخاء وأفانين من الصفاء..

وكانت القاعة الكبرى في ذلك القصر الرابض كالطود، المشرف على دجلة

اشراف الحصن الممنع على واد سندسي ممرع، أشبه بالشعلة المتوهجة من الأرجوان المنعكس اللألاء على غابة من المرمر يضيء بألف ثريا وثريا.. كأنما استحال سقفها الى سماء صيفية وكل نجم فيها بدر تمام.. بدر لم تطلقه يد المبدع في مداره إلا ليتغنى به الشعراء قصيدة عذراء، ويستلهمه الأدباء فصولا بعلم الجمال، ويجلس قبالته الرسامون يقيدون لجيني سنائه في الصورة البديعة واللوحة الرفيعة.. أو لينقلب هذا الضياء لحناً رخياً دافئاً يأتلف فيه ألف نغم ونغم، تعاشقاً مع سناء العقود اللؤلؤية الضاحكة ببريقها الأخاذ على مرمري النحر وعاجي الجيد.

وأن الوتر في حضن غادة كاعب، منسجماً وأغنية ارتقت بالسامعين إلى آفاق حلم شاعري تدّوم فيه أجنحة الخيال تدويماً هو حكاية النفس البشرية التي تحيا على زاد الحب ورحيق الشوق.. وأنشد المنشد على ترنح الجيد المتعطف المنساب مع اللحن.. فتعالى التصفيق والهتاف كأنما استحالت هذه القاعة الى دنيا كاملة من الفتون والفنون، في مهرجان من مهرجانات الربيع، وعيد من أعياد الحياة، عبقري الخيال والجمال.

إلا ان الجميع سرعان ما انتبهوا الى ايماءة الرجل المغامر، وكأن تلك الايماءة ضرب من السحر اكثر صحواً وأرهف حساً، وغدوا جميعاً آذاناً صاغية وقلوباً واعية، مترقبين الحديث الأخير لرحلات الرجل المغوار الذي شابت الليالي من هول وقائعه، وهو شاب الروح، فتيّ العزم، صارم النظرة، قوي الارادة، كأنما جبل من شمّ الجبال التي ارتقى، وعمق البحار التي خاض، اجتمعت في جنانه نضارة شجر الزيتون أملا وجرأة الأسد قوة، عرف الضياع في الفيافي فما تاه عن هدفه، ورمته الأقدار شلواً مدمّى على حاد الصخور فما استسلم لليأس ولم يذب في يد القنوط، وعاش اكثر من مرة في شدق الموت فظل رافعاً بيمناه فانوس رجائه وبيسراه لواء عزمه ومضائه..

وكان في هذا اليوم، وكأنه ابن

العشرين، ينثر نكاته ذات اليمين، ومستلمح نوادره ذات اليسار، ويخص بالطريف منها سميّه سندباد باعث ذكرياته من مراقدها.. وما لبث ان قال وهو يربت على كتف صاحبه:

رسول الخليفة

قد تعجبون ايها الاخوان ولا ريب، وتتساءلون ولا بد، كيف يركب سندباد البحر للمرة السابعة، ولم ينج من الهلكة في سابق مغامراته وفائت مخاطراته إلا بشق النفس كدحاً للجسم وارهاقاً للروح.. لا سيما واني لم أكن في حاجة الى المال، ولم يعد في قرارة ذاتي ميل للمغامرة والمخاطرة وركوب السبل الصعبة، ثم اني قد آليت على نفسي ألا أبرح بلدي، وإن قدرت ألا أفارق حيّي، وان أبقى بقية العمر ناعماً بالراحة خالداً الى الهدوء والسكينة.. لكن ما كل ما يتمنى المرء ينال، ولا كل ما ينبغي يدرك، إذ انني فيما كنت جالساً ذات يوم مقصورتي أتأمل معالم دار السلام، محجة المجد ودرع الاسلام، بغداد الجميلة الممنعة على الاعداء، وطيف الماضي يمر بخاطري مروراً لطيفاً إذ مضى وانقضى، ولم يعد إلا الذكريات يلذ استرجاعها، وأحاديث تحفز الشعور وقائعها، وتكاد تضيع في تضاعيف المخيلة.. اذا برئيس الشرطة يدخل عليّ وأنا في تلك الحال من هدوء البال، ويقول لي:

- كلّم أمير المؤمنين يا سندباد..

فارتعت لهذا النبأ وسررت، وفرحت واضطربت، إذ سيكون لي شرف المثول بين يدي عاهل الدنيا ابن عم الرسول، عظيم المشرق وسيد المغرب، وان تلك الساعة من العمر لهي من نعم الزمان التي طالما تمنيتها، والفرصة السانحة التي شد ما تحينتها.. لكم لم أدر وأنا في طريقي الى قصر الخلافة الذي هو السواد بعين الدهر، وسويداء مهجة العصر، لِمَ شاب ذلك السرور شيء من الانقباض الداخلي والتوجس الخفي..

ولـمـا انـحـنـيـت انـحـنـاءة الاجـلال لـصـاحـب الـعـرش والـصـولـجـان، تـلـقـانـي بـابـتـسـامـة مـقـتـبـضـة فـيـهـا كـل مـعـانـي الرجولة والعظمة، ثم قال لي:

ـ أهلا بفتى بغداد ابننا السندباد..

فعادت الطمأنينة إلى نفسي، وأفرخ من روعي، بيد ان أمير المؤمنين ما لبث ان بادهني بقوله:

ـ ان لملك سرنديب علينا يداً لا بد أن نردها اليه، وفضلا لا مناص من أن نذكره له، وقد رأينا ان يكون ابننا السندباد رسولنا اليه، يحمل هدايانا ويرفع لدى هذا الملك الكريم لوانا..



ولم أقدر إلا ان اقترب منحنياً لألثم طرف ثوبه وأنا اقول:

ـ رغبة مولانا قضاء لا مهرب منه وقدر لا دافع له..

ـ أويروعك السفر ياسندباد؟..

ـ لو وجّهني مولاي الى اقتحام الردى لأقدمت، والخوض في بحر المنية لما أحجمت..

ـ لن نوجّهك إلا لما يعلي من شأنك ويرفع من ذكرك ويكون لك فيه الخير..

راية الموت

وكان الاستعداد للرحيل، وكنت واخوان لي على غوارب الماء وكأننا أغنية من أغاني البطولة، وانشودة سيبقى لحنها مالئاً صدر الزمن، ويظل الأدباء والشعراء يعيشون على طيوف معانيها.. وزاد سروري سروراً وفرحي فرحاً، انني مسافر هذه المرة بمهمة سياسية لا تجارية، وموفد خاص من عاهل عظيم الى ملك كريم.. وكانت الريح مؤاتية، والنسيم يهب عليلا بليلا، نسامر النجوم ليلا ونعيش أفراح الوجود نهاراً، بطرب مستمر ولحن غير منقطع، ومركبنا الجميل جار ما بين زرقة الماء وزرقة السماء بشراعه الأبيض الناصع، كما لو كان طائراً بحرياً محلقاً في الجو وقد أرخى ساقيه في الماء، أنيق المنظر حسن التنسيق، ينم عن المنبت الملكي بجميل هندسته وزاهي ألوانه، ولا سيما قمرته التي كأنها قاعة استقبال ملكية بالغة الأبهة بثمين أثاثها وحسن تنسيقها..

وفيما كنا نحيا هذا النعيم إذ داهمنا ظل الجحيم، وانتقل رخيّ الريح دون سابق انذار الى عاصفة هوجاء وصرصر نكباء، فارمدت عين النهار بشكل مفاجىء، ومدّ الظلام رواقه على الكون، فتمايل بنا المركب مترنحاً متقلقلا، وداخل الركاب الآمنين الهانئين هياج واضطراب، وفزع وجزع، يعولون ويصرخون على ارتفاع السفينة وهبوطها وهي تتخبط في دياجير هذه الظلمة القاتلة.. وأسرع البحارة لانزال



الشراع الكبير، لكن الريح الغضوب فوتت عليهم الفرصة وهبت نافخة فيه عاصفة قاصفة كأنها تريد ان تقتلع الجارية من البحر وتطوّح بها في الجو.. ولم تلبث المياه أن مدت الاعصار بقوة من لدنها، فأرسلت السماء صيّب دفقها، بقرع كأنه

لسع السياط أو ضربات المطارق، يصحب ذلك النشيد الجنائزي ابراق خاطف للبصر، وإرعاد مصم للسمع، ومع ذلك يتناهى إلى آذاننا خلال هذا الهرج والمرج وجنون الاعصار،صرير الخشب الذي يئن أنيناً مؤلماً في هذه

المعركة ما بين قوى الطبيعة الهوجاء وهذه الجارية على اسم الله..

وكفّ المطر قليلا فاستبشرنا خيراً، لكن تفاؤلنا سرعان ما انقلب تشاؤماً إذ انزلق بنا المركب في تيار عنيف وجرف مخيف لا سبيل لأية طاقة بشرية وقدرة انسانية ان تكبح من جماحه أو تتفادى الانزلاق فيه، فكأنما خيّمت على جو المعركة غير المتكافئة أرواح لعينة شريرة لا لذة لها إلا التدمير ولا مبعث لنشوتها غير سماع الآهات والأنات والنحيب والنشيج..

وانجلى ميدان هذه الملحمة المروعة عن ارتفاع راية الموت على قلعة الحياة المدمرة، وظهور آية الفناء على الوجود، والعدم على البقاء، إذ ازداد نفخ الرياح اعصاراً، وقوة التدمير هلاكاً وبواراً، فلم يبق من الأشرعة إلا مزق مهلهلة، ومع ذلك ازداد ترنح السفنية التي تلطمها الأمواج من كل حدب، وتحدق بها اللجة من كل صوب.. وكانت الضربة القاصمة تلك الصاعقة التي انفجرت في وسطها فتطايرت شظايا متناثرة وألواحاً متفرقة، والركاب ما بين انسان التهمته النار، وغريق راح في بعيد الأغوار، ومكابر يكافح الموج ويقاوم التيار..

الاشجار المفترسة

وكان من لطف الله بي انني كنت احد الناجين، استعين بلوح خشبي هو قارب نجاتي، وقد جعلت هدفي الوصول الى جزيرة أطلب فيها الأمان وأستعيد الرجاء..

وأدركت الجزيرة ولم يطل لبثي فيها، إذ كنت إذا ما نظرت الى السماء تبدت لي وكأن الجو على رحبه بساط متحرك من جناح خافق، ومخلب ناشب، ومنسر متحفز، وعيون نهمة متحدية هي من الموت معناه ومن الردى فحواه.. وكنت ازداد خشية وجزعاً عندما انظر الى سفح الجبل فلا أرى سوى النسور المتربعة المتحفزة، او تلك الغرابيب السود، يزيد المكان وحشة ذلك الزعيق الذي تطلقه القردة وهي تقفز من غصن

إلى غصن في أعالي الاشجار.

وكان أشد ما أثار جزعي وهلعي، فانخلع له الفؤاد وتزلزل القلب، انني فيما كنت انقل الطرف ما بين معالم هذه الجزيرة، وما يحلق في سمائها وينزوي في جنباتها من الحيوانات الغريبة صغيرها وكبيرها، وتلك الأشجار المتميزة التي ارتفعت بقامات النخيل وقدود الحور، بجذوع حادة القشرة خشنة اللحاء، كأنما هي وجه الصفيق، او محيا عجوز فاجر خدّدته الأيام على الشقاوة والتعاسة وضلال الروح، يرتفع على هاماتها سعف متطاولة كأنها الحراب الزنجية او السيوف الرومية، يتخلل تلك السعف خيوط متطاولة اذا ما انكمشت على نفسها كانت وكأنها لمّة الزنجي الهائج الثائر، جهمة الهيئة وحشية المنظر، تثير الرعب في نفس الناظر اليها، وينبىء التطلع اليها عن ألف مأساة ومأساة، حتى كأنها بمديد سعفها وملتف خيوطها تقول للمتطلع اليها: «اليك عني.. اليك عني!..»

وفيما انا فيه من الوحشة، أفكر في طريقة للنجاة، وفي اتخاذ بعض ألياف تلك الأشجار حبالا أشدّ بها ألواح مركبي بعضها الى بعض، وقفت مشدوهاً فاغر الفم، مأخوذاً من غرابة المشهد الذي لم أر له مثيلا في حياتي، والمنظر الذي أخذ عليّ مشاعري وأخذ بخناقي حتى حبس عليّ الأنفاس وكاد يذهب بلبي.. إذ انني فيما كنت انظر منخلع الفؤاد الى قرد من القردة يزعق بي زعيقاً مخيفاً وكأنه يتوعدني ويتهددني، وانا متماسك على نفسي ضابط اعصابي، إذا بالقرد الخبيث يقفز زاعقاً من غصن شجرة الى فرع غبرها.. وفيما هو يقفز مرحاً نشيطاً، مهدداً متوعداً، ووراءه بعض القردة، اذا به يقع على لمة احدى تلك الاشجار اللعينة، واذا بزعيق القرد المتوعد ينقلب الى صياح مذعور ما عتم ان انقلب الى توجع وأنين، لأن تلك اللمّة اخذت تلتف حول القرد المسكين آخذة بخناقه، وكأنها اعضاء مرهفة الحس، بل كأن وراءها عقلا ذكياً موجهاً.. وما فتئت السعف

المتعالية في الهواء ان اخذت تجتمع على نفسها حتى غيّبت القرد الذي انشلّت منه الحركة كلياً وتخافت زعيقه وأنينه شيئاً فشيئاً.. بينما تراجع سائر القردة مهرولة مذعورة تطلق صيحات منكرة تثير في النفس الرعب والاشمئزاز معاً..

رجل في شبكة

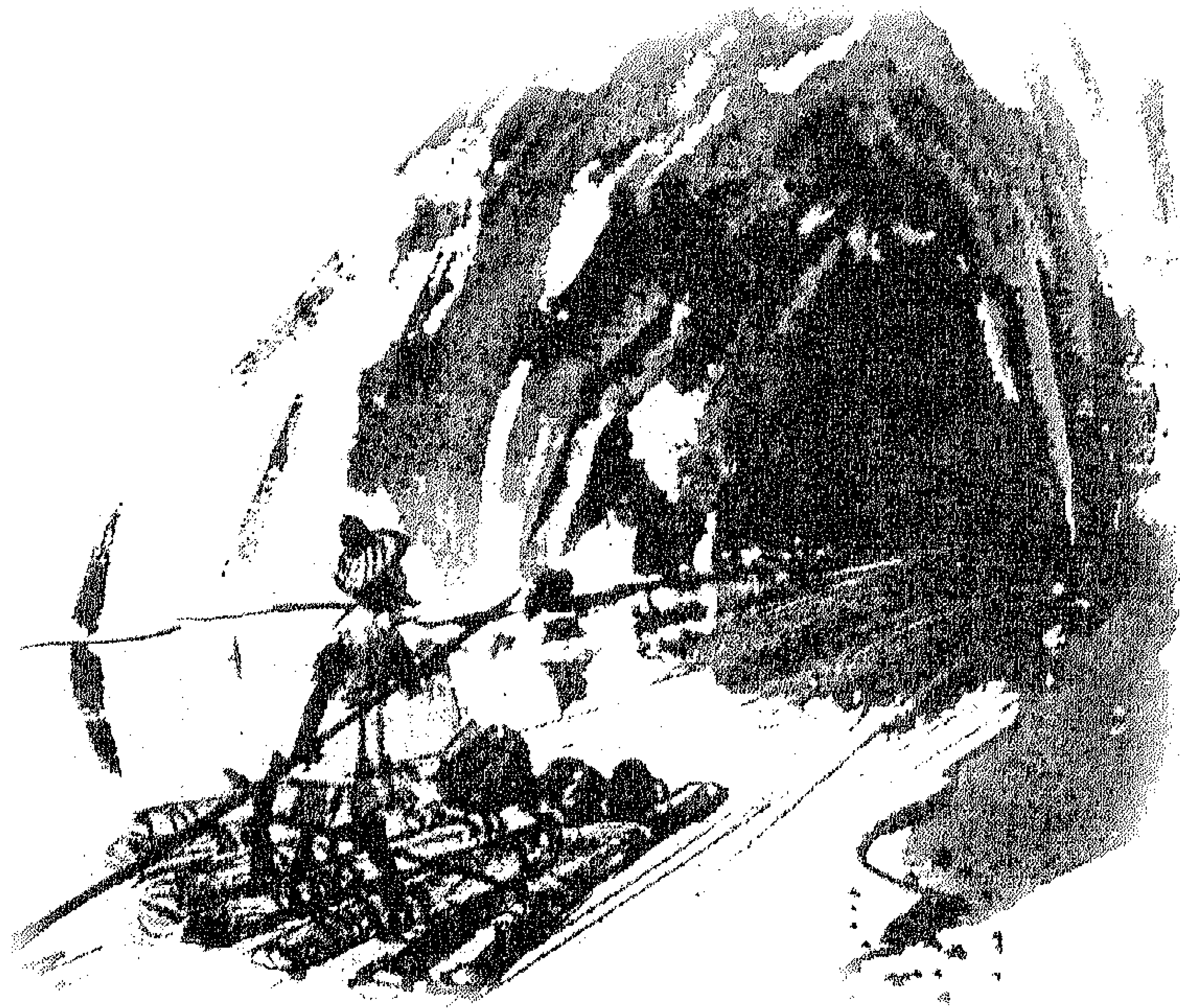
اما أنا، فكنت أكثر خوفاً وفزعاً وأشد رعباً وجزعاً، عندنا رأيت بعد أيام قلائل تلك السعف الشيطانية وقد عادت الى انطلاقها في الهواء، متفتحة عن كومة من العظام السوداء.. وخيّل اليّ كأني عالق بشكبة لعينة مبثوثة في كل منحنى ومنطعف من تلك الجزيرة، فأسرعت بجمع بعض أخشاب الصندل المنثورة هنا وهناك من أرض هذه الجزيرة العذراء، وصنعت من أجزائها قارباً صغيراً دسره ألياف الأغصان التي شدّت الألواح بعضها الى بعض، ثم ألقيت نظرة أخيرة على هذه الجزيرة المشؤومة التي تلفّها روح الوحدة القاتلة والوحشة المنسدلة الأطراف على كل شبر من أرضها، والشؤم الماثل في كل جانب من جنباتها ولسان حالي قول الشاعر:

ترحّل عن مكان فيه ضيم
وخلّ الدار تنعي من بناها
فانك واجد أرضاً بأرض
ونفسك لم تجد أبداً سواها
ولا تجزع لحادثة الليالي
فكل مصيبة يأتي انتهاها
ومن كانت منيّته بأرض
فليس يموت في أرض سواها

وغمست مجذافي الصغير في اليم أجدف على غير هدى وأسير ولا هدف، اللهم إلا ان أجد في طريق المصادفة سفينة تحملني عن هذه المنطقة اللعينة، وأنا اقول في نفسي: «لئن مت غرقاً خير لي من ان تتوزع جثتي مناسر الطير ما بين صقر ونسر وبوم!..»

وما زلت أجذف وأجذف لا أعرف

الكلل ولا يداخل عزيمتي الوهن، يتقاذفني التيار وتتجاذبني الأعماق، وأنا أكافح مستبسلا وأقاوم معانداً.. إلا اني ما لبثت ان شعرت بأن القارب الصغير يكاد ينزلق في تيار جارف، تجتذبه عن بعد دوّامة مائية خطرة لا ترضى لي وله غير قاع المحيط مرقداً.. وعلى غير وعي مني ورغم شعوري بالوحدة، فقد رفعت صوتي – وأنا لا أرى غير هذا الشدق الفاغر لابتلاعي – بطلب النجدة والاستغاثة.. حتى إذا شارفت شفا اليأس، وجرف القنوط، وقلبي واجف وفرائصي مرتعدة مرتجفة، إذا بشبكة تقع عليّ فتجذبني وقاربي الصغير من الدّوامة الخطرة. وإذا بي أجد نفسي ممدداً على الشاطىء يتحلّق حولي أناس ضمّوا أيديهم الى صدورهم واجمين ساهمين، وقد استراح رأسي على ركبة شيخ مهيب الطلعة أبيض الشعر، تبسم لي عيناه بسمات الأمل والرجاء والمودة والحدب، وكل إطلالة من هاتين العينين الساجيتين باعث عزيمة وملهم ارادة.



صفقة رابحة

ولما استعدت مبهور أنفاسي وثاب اليّ هدوء نفسي، واسترحت إلى وجودي بين ظهراني هؤلاء القوم، ولا سيما هذا الشيخ الوقور والانسان الحادب، انطلقت شفتاي باسم الله شاكراً، فتهلل وجه الرجل العجوز على حين زاد القوم في وجومهم وسهومهم.. ومال عليّ ملاك الرحمة هذا وهو يقول:

ـ ما اسمك يا بني، ومن أي بلد أنت؟..

ـ سندباد، من سكان بغداد..

ـ أهلا يا ابن الوطن المقدس التربة، الناعم بحكم الرشيد وحكمة البرمكي، تجوده دجلة ويجري في حناياه الفرات، والأرض التي ترابها حنان وغياضها جنان، بلاد المجد التليدومنبع الحكمة الثر... آه على حفنة من ترابها اشتريها بثقلها ذهباً وجواهر!..

ثم شرق الرجل بدمعة تحدرت في فؤاده قبل ان تتدحرج على خديه..

وكان انتقالي بعد ذلك الى دار هذا الشيخ الجليل الذي أنزلني من نفسه منزلة الأب ابنه والجد حفيده، وأوصى غلمانه وخدمه بي خيراً، وأفرد لي غرفة خاصة بدار ضيافته..

وقضيت أياماً هنيئة سعيدة في كنف هذا الرجل الذي كلما مرّ على معرفتي به يوم ازددت به اعجاباً، وازداد هو حدباً علي ورفقاً بي، فما كنت اشعر في قرارة نفسي بحاجة إلا وجدتها مقضّية، كأنما يقرأ دخيلة نفسي كما يقرأ الانسان في سفر..

وجلس اليّ ذات يوم في ساعة من ساعات صفائه وهنائه، بعد ان قضى فريضة العشاء، يسألني عن شؤوني وأحوالي، ثم حرّر رأسه من عمامته وأخذ بين أنامله مسبحته، وبعد ان سبّح باسم الله قليلا احتفل بي وهو يقول:

ـ والآن يا بنيّ هلا تريد ان تبيع بضاعتك؟

فنظرت اليه مستغرباً مستفهماً:

ـ وأية بضاعة تقصد يا مولاي، ليس

بعهدي انني وفدت على هذه الجزيرة ببضاعة، وإنما أنا غريق انتشلته عناية الله على يديك، وفقير مدقع أعيش على حسابك وتحت رعايتك!..

لكنه رد علي مبتسماً ابتسامته الطيبة وفي أساريره الدماثة والحنان:

ـ إذن موعدنا الغد في السوق، وبضاعتك جيدة يا بنيّ وذات قيمة..

وقضيت تلك الليلة بين مصدق ومكذب لهذا النبأ، ومقدر لهذا الشيخ يده عليّ وشاكّ بمداركه.. ولكنني صدعت بأمره وانطلقت في اليوم التالي الى السوق، وإذا بي ـ ويا للعجب ـ أرى ألواح قاربي قد فكّ بعضها عن بعض، والدلاّل ينادي عليها والتجار يتزايدون:

ـ مئتا مثقال ذهباً..

ـ اربعمائة...

ـ ستمائة..

فالتفت الشيخ الى تاجر واقف بجانبه وقال له:

ـ وأنت يا أخي ماذا تقول؟

فأطرق الرجل اطراقة تفكير وترو، ثم رفع رأسه قائلا:

ـ ألف مثقال ذهباً.

وهنا تهلل وجه الشيخ بشراً، ثم التفت إلي وهو يقول:

ـ أبعت يا بني؟

ـ بعت.. بعت.. انها لصفقة رابحة!

ـ إذن علي بألف ومائة..

فسكت الجميع ينظر بعضهم في وجوه بعض، أما جوابي على ذلك فهو انحنائي على يد الشيخ ألثمها لثم الشاكر المتبرك، والرجل الطيب يسحب يمينه من بين يدي وهو يقول:

ـ بارك الله بك.. واننا لأحوج الناس إلى لثم أذيال ثوبك، إذ وفدت الينا من الأرض المباركة الطهور..

محراب الامل

وكرّت الأيام ونجم سعدي يزداد

تألقاً وسناء، وأنا على أنعم ما يكون المرء راحة بال وهدوء نفس، أشعر وأنا في كنف هذا الانسان المضياف انني في أهلي الخلصاء وخلاّني الأوفياء، لا يخالط نفسي من ظل الهم والجوى ألاّ ما أنا فيه من البعد عن أرض الوطن، لذلك كنت بعد أن اقضي فترة الصباح مع مضيفي مجسد النبل الانساني الذي ما يفتأ يزيد في اكرامي والاحتفاء بي كأنني ضيفه لأول يوم، يقوم عبيده على خدمتي واماؤه على تأمين راحتي.. حتى اذا انقضت فترة الصباح أسرعت الى الشاطىء أمد الطرف بعيداً بعيداً، أتأمل زرقة الماء ولازورد السماء، وأشبع اذنيّ من هدير الموج المتكسر على الشاطىء ذوباً من اللجين وسائلا من الزجاج، ثم لا يلبث زبده الأبيض ان ينحسر بجزر الى البحر، وقد تداخل الماء بعضه في بعض طيّات ضمن طيّات وحلقات متداخلة في حلقات، يتهادى في الأفق البعيد هنا وهناك اشرعة نقية بيضاء كأنها قلب الطفل أو سريرة العذراء، ثم لا يلبث دفق



الشعاع وزرقة الماء والسماء أن يتداخلا في خيوط النسيج ألواناً زاهية تسّر النظر وتأخذ بمجامع الفؤاد، فألبث مأخوذاً بجمال المنظر وجلال المشهد كما يقف الرجل المتبتل في قلب المعبد.. ولا أفيق من استغراقي هذا وأجمع اطراف ثوبي تأهباً للعودة إلا بعد ان اشبع الطرف من مشهد قزاعات الغيوم المتناثرة أبسطة متقطعة على غير ما نظام في جوانب الأفق، تنفذ منها خيوط الشمس الغاربة بألوان قوس قزح، والقرص الملتهب يغيب شيئاً فشيئاً في اعماق اليم، فأحس بأعماقي هدهدة الطبيعة بموسيقى لا أعرف أهي تنبعث من ذاتي أم تملأ جوانب نفسي سماية النغم علوية اللحن.. ويغزو الافق سرب من الطير، خفق جناحه همس النسيم على صفحة الماء وزقزقته صلاة أبدية، ولا ينكشف ظله عن وجه السماء إلا وقد اشتعلت أعلى شجرة في قمة الجبل بلهيب كوكب النهار، وارتقى ملك الليل عرشه الفضي.. فأقفل راجعاً وفي نفسي فيض من المتعة يشوبها بعض الحسرة.. لأعاود الجلوس في تلك البقعة في الايام التالية انتظر وأنتظر..

وخرجت ذات يوم من دار الضيافة وقصدي ذلك الركن من الشاطىء الذي كان محراب آمالي ومطرح أحلامي، ولا أدري كيف عرجت على حديقة القصر، وكل ما في الجزيرة وضّاء الجانب مشرق الحاشية، منوّر حيث لا زهر، غرد حيث لا طير، كأنما جمعت حدائق الدنيا فقّطرت ورودها لتعبق في نسيم ذلك الجو عطراً فاغماً، والطبيعة كلها قد خرجت متبرجة بوضاءة الربيع تنفح الكون بنسمات السعادة، متأودة عوداً ريّان المعاطف، جذلان بأيدي النسيم، هامساً بانشودة الحب، متنسقاً في جو من السحر والشعر والعطر..

الطيف الملائكي

وخطوت الخطوات الأولى في هذه الجنة الأرضية وكأن تفتّح كل برعم تلألؤ الكوكب الدري أو ابتسامة البراءة في ثغر

الطفل، وقطرات الندى ماسات علوية تترقرق في ناعم الوريقات بسمة وادعة ونظرة طهر وبراءة، وخطور الفراشات هنا وهناك طفرة قلب المجد بين جوانحه وتبرّج الألوان على ذلك التراب الذي هو نثير الأرجوان، والطير آمنة في وكناتها سعيدة في أعشاشها، فاتنة في ضجة حبورها وانبساط أجنحتها، تغرّد لحن السعادة زقزقة قدسية الأداء علوية الغناء..



وزدت في تغلغلي فاتحاً صدري للهواء الطلق استنشقه ملء رئتي، وأمدّ الطرف بعيداً إلى نهاية الأفق استجليه في ذلك الرواق الأزرق الممتد من اللانهاية إلى اللانهاية، وقد اشتعلت جبهته الشرقية بفيض من النور هو للطافته اشبه بضياء القمر في ليلة بليلة الجناح.. وطفرت روحي بين جوارحي تستخفني النشوة ودفء السعادة في هذا الجو الساحر، لايعيقني عن التحليق في هذا النسيم البليل سوى ثقل مادة الجسم، وكل ذرّة في كياني تنطق بأحاسيس الجمال وتطوف في آفاق الخيال، مندمجاً اندماجاً روحياً في هذا الدفق العلوي من السناء والبهاء..

وازددت اقتراباً من قلب هذه الجنينة الفيناء والروضة الغناء، وكأن تأودّ الشجر على جانبيّ انحناءات مؤدية التحية، تستطيل معها الظلال وتتقاصر على الأرض المتسربلة حلّة النعيم، منفرجة عن فسحة بركة هي بحر من وسائل اللجين يحدق به خضم من الورود والزهور، تتهدل عليها غدائر الصفصاف المنحني القامات كأمهات حادبات، فتزيد هذا الجو رقة وحناناً، ووضاءة وجمالا، بتلك الغمغمة الناعمة وذلك التثاؤب المريح..

وزاد ثقل خطوي بطئاً في هذا الجو الشعري، واندفعت في سبيلي وئيد الخطى مسحور الناظر، كأنما كنت أمشي في الأثير، أسبح في هذا الجو المفعم بالأحلام المشبع بالطيوب المتنفس عن السعادة والهناء والرجاء.. وفيما أنا في غمرة النشوة الساحرة واشتراك الخاطر، تسمّرت خطاي على رنة وتر استقيظت لها مشاعري وأصغت لها الطير ذاهلة عن تغريدها وزقزقتها.. في أغنية لو استطاع الماء لكفّ عن جريانه لالتقاط ايقاعها وقرارها، ولحن ناعم كأنه من أشعة البدر، عذب كأنه قبلة الفجر في مباسم الزهر، أنيق كأنه الطاووس يفرش جناحه، فيه من عبقر جو السحر، ومن الفن أزاهير سعادة وطيوف هناء..

واضطرب مني الخاطر أمام قوتين

اثنتين، قوة تسمّرني مكاني خشية جرح هذا الايقاع حتى بأقل حفيف، وقوة تجتذبني الى الحورية المنشدة في هذا الجو الساجي تزيد جماله روعة وجوّه رقة ودعة.. ولعب عامل الفضول دوره فرحت استرق الخطى مع استراق السمع.. ودنوت.. ودنوت.. تجتذبني رخامة الصوت، حتى كان ذلك الطيف الملائكي على مرمى البصر أراه ولا يراني.. وأذا بي أمام سوسنة ناعمة طرية العود، وزهرة ياسمين تنفح الربيع معناه والسحر فحواه، وانسانة في رقة الحمامة المطوقة، لؤلؤية الذراع عاجية النحر، تنثال كلمات الأغنية من مبسمها وكأنه تفتّح البراعم، ويجتمع في وجنتيها اكسير الزنبق بدماء الورد، ذات وجه فيه من البدر استدارته، تجمع الأناقة الى الظرف، برأس فني التكوين دقيق التنسيق كلّ جارحة فيه آية أناقة ودلالة فتنة.. واستراحت قليلا من العزف والغناء مبتسمة لنفسها تبسّم الرضاء والاطمئنان، فكانت بانفراج هذا الثغر نفحة كريمة تشيع في جوها السعادة والأمل والحنان.. فأخذت الطير بالانشاد والورق بالحفيف، وعدت أسمع خرير، المياه ساجيا هادئا سلسلبيلا جارياً.. ولكن لم يطل هذا الصمت الذي انطق ما انطق وسلسل ما سلسل، إذ عادت الصبية لاحتضان عودها، وقد انكسر طرفها عن أهداب وطفاء، ليكون اللحن دنياها التي هي الصبا والفتنة والجمال..

رئيس التجار

وبينا أنا على هذه الحالة من الاندماج الروحي والاستغراق الذهني والتوافق النفسي، مع اللحن ورؤية ربة اللحن التي تفيض على الدنيا بسر السحر وروعة الرواء، أفلتت من صدري أنّة طويلة وزفرة حرّى..

وشعرت الظبية بأنها ليست وحيدة في الحديقة، وإنما هناك من يرى بزوغ الفجر من وجنتيها ورمي السهام من مقلتيها، فأحنت رأسها مرخية أثيث

شعرها على وضاء وجهها فدهم الليل النهار.. ولم تلبث ان هبت مذعورة مستطارة اللب، ظبية نفوراً تطلب الاستتار وراء جدران القصر..

أما أنا فقد جررت الخطو جراً عائداً الى غرفتي من دار الضيافة، منطوياً على نفسي وفي فمي ألف سؤال وسؤال.. ولم يبق أحد من أهل الجزيرة يراني بعد ذلك اليوم على الشاطىء أنتظر قدوم السفينة التي تحملني الى أهلي وبلدي!..

ورأى الرجل الصالح آثار الشحوب على وجهي، وعلامات الاضطراب في حركاتي، وشدة السهوم والوجوم في سكناتي، وانحباسي عن الناس وعدم



سعيي الى الشاطىء.. فما كان منه إلا ان تلقاني بابتسامة اللطف والمسح على جراحي بكف العطف، وأنا استجمع قواي وأستنهض عزمي، لا أعرف كيف أستحضر كلمات ذلك الطلب الذي يحيل دنياي تسبيحة الشكر في فم الدهر، حتى قال لي ذات مرة:

ـ كيف رأيت حديقة قصرنا يا سندباد؟..

فما كان مني إلا ان انحنيت على يده ألثمها مقبلا وأبللها بدمع العين شاكياً راجياً، والرجل يسحب يمينه من يديّ وهو يربت على كتفي بحنان يقول وقد عرف رغبتي وادرك طلبتي:

ـ طلبك مقبول يا بنيّ.. فأنت انسان نبيل وفتى كريم، ويكفي انك من أرض الطهر قبلة العصر والدهر..

وزفّ الرجل ابنته اليّ، وقضيت أياماً كانت فيها «حنان» بهجة دنياي ومنبع سروري، تزداد في عينيّ كل يوم فتنة وروعة وجمالا، والدهر باسم لي والحظ مقبل عليّ، متسربلا حلل السعادة، عائشاً في جو الأحلام العذاب.. ولم يعكر صفونا سوى الرقدة التي طالت هجعتها بعمّي النبيل، إذ توفاه الله وهو يغمرني بجميل دعواته ويفيض على وحيدته ثمين بركاته.. وأقبل عليّ التجار يعزونني بوفاة عمي من جهة ويهنئونني من جهة أخرى باجماعهم على جعلي رئيسهم الذي اليه يرجعون، وبرأيه يأخذون..

الظاهرة العجيبة

وعادت الأمور تجري على طبيعتها هادئة هانئة، إلى ان كانت ذات ليلة شعرت فيه وكأن حدثاً مريباً قد وقع في المدينة، وقد ادلهمت فيها السماء وخسف القمر، وظهر في الأفق البعيد لمعان غريب كأنما تتفجر فيه مهجة البحر.. فبت ليلتي تلك وأنا متوجس شراً، أشعر بكابوس ثقيل يجثم على صدري، وتعاظم توجسي حين نزلت في اليوم التالي الى السوق لأستجلي الخبر، فاذا المدينة خالية من السكان، يرين عليها صمت عميق، لا أرى

فيها ظلاً لانسان، وكان وقع خطاي يرتد الى أذني كأنه ضرب المطارق، تلفّني الوحشة، منقبض الصدر، طائر شعاع النفس.. ولم أسترح إلا عندما ضمّتني جدران منزلي واسترحت الى جانب زوجتي استنطقها سرّ هذه الظاهرة العجيبة..

وأطرقت زوجتي قليلا ثم قالت لي:

ـ اعلم يا رفيق الحياة بأن اهل هذه الجزيرة يعيشون ظاهرة غريبة، وان جميع رجالهم يلبثون في مطلع كل عام من سنتهم القمرية واقفين على الشاطىء ليلا، والقمر ما بين المحاق والاهلال، ويأخذون بقراءة أدعية غريبة كل الغرابة، مبهمة الكلمات غير مفهومة مخارج الاصوات، كأنهم ينطقون من أنوفهم لا من ألسنتهم وأفواههم.. وما يلبث البحر ان تلتهب صفحته من الناحية الشرقية، وتأخذ السماء بالابراق والارعاد، حتى يتصل لهيب السماء بنهر الدماء.. وحينئذ تتغير سحنهم، ثم تختفي أيديهم لينبت مكانها أجنحة وأذيلة، ويتم المشهد عندما يرتفعون محلقين الى السماء كما شهدت ليلة امس، فلا تدري إذ تنظر اليهم وهم في الجو أهم خفافيش طائرة أم ملاءات سوداء متناثرة.. ويستمرون ـ على ما يقال ـ في التحليق، حتى يبلغوا أمكنة لا يجوسها أحد سواهم، تحاكي الجنائن فتنة والرياض ابداعاً، ويبقون هناك قرابة الشهر وقد تجددت حياتهم ونشطت أجسادهم، حتى اذا ما قضوا اوطارهم عادوا قافلين الى الجزيرة حيث تختفي أجنحتهم ويعودون بشراً أسوياء أصحاء أقوياء..

وقضيت شهراً كاملا والمدينة ساكنة هادئة، لا نشاط فيها ولا حركة.. واهتبلت أنا الفرصة فكنت أنزل ورفيقة حياتي الى الجنينة نقضي فيها ساعات ساعات، تغنيني وتنشدني، فنتمتع بكل نعم الحياة، ونجدد لذاذات اللقاء الاول، والنظرة الاولى التي ستبقى مرتسمة في فؤادي حتى آخر نسمة في حياتي..

وانقضت أيام رحلة القوم، وذات ليلة فيما كنت أنا وزوجتي جالسين في شرفة

قصرنا، إذا بطائف كثيف الظل يكاد يسدّ الأفق، يدهم السماء، ثم ترتفع في الجو ضجة وجلبة لا هي بالكلام ولا بالهديل أو الزقزقة.. ولم تبرح هذه الغمامة ان أخذت بالانعطاف نحو الغبراء مزايلة السماء..

فهمست زوجتي في أذني:

ـ لقد اقبل القوم، وها هم يرجعون الى منازلهم قادمين من جهة الشاطىء..

فداخلني توجّس غريب ورعشة سرت في سائر مفاصلي، وشعرت بكابوس ثقيل يجثم على صدري.. ولكن زوجتي هدّأت من روعتي وأفرخت من جزعي، واعلمتني ان القوم عادوا الى سابق عهدهم، وانهم الآن اكثر دماثة وأحسن معاملة وخفض جناح..

رحلة في الفضاء

وشعرت في اليوم التالي بدبيب الحياة يسري في شرايين المدينة، أحياء وأزقة، شوارع وأسواقاً، وان كل ما في الجو عاد مشرقاً بهيجاً يشيع الدفء ويطفر بالحيوية.. وبتشجيع قرينتي وحضّها نزلت الى السوق، فاذا كل من يشاهدني من اخواني التجار يتلقاني بالعناق ويسألني عن صحتي وأحوالي، كأنما كنت أنا المسافر وهم المقيمون..

ومن بين اولئك التجار اتخذت خليلا واحداً فتحت له مغاليق فؤادي، حتى صار يعيش بعواطفي ومشاعري، كما فتح لي هو كذلك مغاليق نفسه، حتى غدوت وإياه وكأننا شخص واحد وذات واحدة.. وفي جلسة هادئة من جلساتنا الخلوية سألت الرجل عن السر الذي تعيشه الجزيرة وطيران القوم وغيابهم، فاذا بالرجل ينحيني بلطف وأدب عن هذا الموضوع متحاشياً الخوض فيه.. ثم أطرق قليلا وقال لي بعد ذلك:

ـ ومع هذا سيكون لك نصيب من رحلتنا هذه لأنك غدوت واحداً منا.. وأما السر.. السر الجهير.. فأرجوك ان تعفيني من الحديث عنه..

وفي الليلة الليلاء من مطلع العام القمري التالي كنت على الشاطيء منتحياً وصديقي الوفي ناحية هي بمنأى عن باقي رفاقه.. وكانت الأدعية المستغلقة على الفهم، واشتد سواد الليل وتكاثفت حلكته.. ثم انفجر البحر بعمود من النار لا دخان له، وجاوبت السماء بنارها ونورها.. ورأيت رفيقي قد استحال إلى طائر وهو يردد احجيته.. وبسط المخلوق الجديد المنسلخ عن الكائن البشري جناحيه جاثماً على الأرض اشارة منه بوشك التحليق، وسرعان ما كنت على ظهره مستريحاً استراحة الطفل في مهده.. وزعق الرجل زعقة لم أر نفسي على أثرها إلا وأنا فوق الغمام.. وكان الطيران الجماعي كأنما القوم سرب من الصقور والنسور الكبيرة..

ونظرت في الصباح الى الأفق الشرقي فخّيل اليّ كأنما الشمس تشرق من جناح الطائر الذي أعتليه.. وإذا الأرض بما عليها تتراءى أمامنا صوراً يتلو بعضها بعضاً، وفي كل منظر باعث للنشوة، وكل مشهد يفيض على نفسي بالبهجة، كأنني أعيش في حلم سماوي على ايقاع علوي متجدد النغم متغير اللحن، وفي التجدد لذة وفي التغيّر متعة.. حتى لكأنني أسمع حفيف أجنحة الملائكة وتسبيح الكائنات العلوية..



ولـم أفـق مـن ذهـولـي وانـخـطـاف روحي إلا وأنا أردد: «يا لله.. يا لله.. هذه هي الجنة وإلا فلا..» لكنني لم أتم جملتي هذه إلا ورأيت السرب جميعاً يقع أجنحة مهيضة مكسرة محطمة فوق قمة من قمم الجبال.. وإذا بالطيور تعود الى سابق خلقتها، وكل منهم صورة متجهمة حاقدة متألمة متلظية من الغيظ.. وكان أشد القوم غضباً عليّ رفيقي الذي حملني.. ورشقوني جميعاً بنظرة كأنها السهم المسنون المسموم.. ثم تركوني ومضوا إلى حال سبيلهم ساهمين واجمين..

عكّاز الامان

وتطلعت حولي فلم أجد غير الوحدة والوحشة والسكون القاتل، فقمت أمشي في هذا الجبل هائماً على وجهي، متردياً في وهدة الحيرة والألم والانشغال الذهني على رفيقة حياتي الوفية الأمينة، نادماً على تركي إياها وركوبي هذا المركب الخشن بعدما نعمت بالراحة والأمان والاطمئنان.. لم أفتأ أردد ذكر الله وأستعين به.. وفيما أنا كذلك من حيرتي وقلقي، اذا بي أرى رجلين أشبه بملاكين، يفيض النور من وجهيهما وتنطق الرحمة في عيونهما، فسألني أحدهما:

ـ ما لك أيها الأخ؟..

فقلت: غريب مسكين، مقطوع عن العالم، معزول عن الناس، لا أدري أين أنا ولا كيف المصير؟..

فتبسم بوجهي قليلا ثم قال لي:

ـ أتذكر الله وتخشى سوء العاقبة يا أخي؟.. هلا ذكرت أن من يتوكل على الله فهو حسبه.. اليك بهذا العود.. انه عكاز الأمان في هذا المكان..

وأعطاني قضيباً لبثت مشدوهاً مأخوذاً لجمال صناعته وحسن صياغته، فيه ألق النور وتوهج النار، دائم البريق دائب الاشعاع.. ولما نظرت الى الرجلين الكريمين لم أر لهما أثراً، فقد اختفيا عن ناظري ولم يبقيا إلا الصورة الجميلة في مخيّلتي..

ومضيت أضرب في شعاب هذا الجبل آكل من ثماره وأشرب من ماء أنهاره، وقد عاد الى نفسي هدوءها بعد ذلك الاضطراب، وأمنها بعد ذاك العذاب، وأنا أتوكأ على القضيب الجميل فاكتشف فيه كل يوم جوهرة لم أرها في اليوم السابق..

وذات يوم وأنا أسير في شعب صعب المسالك وعر الطريق، ضيق مخيف، فيه جهامة ووحشة، يبعث على الرعب ويتفجر بالهول، سمعت أنيناً عميقاً تتقطع له نياط القلب وتهلع له النفس.. فأسرعت نحو مصدر الأنين المكبوت والتنفس المختنق، وإذا بأفعى



هائلة تبتلع رجلا وقد أصبح نصفه في جوفها، يتبعه النصف الثاني بعملية ابتلاع بطيئة مخيفة.. فبادرت الى ضرب الأفعى القاتلة على رأسها بالقضيب الذي أحمله، فما لبثت ان تقيأت الرجل المسكين وانطوت على ذاتها مشلولة الحركة فاقدة الحياة.. ونظرت إلى الرجل ونظر الي.. واذا به يصيح:

ـ أنت.. أنت.. ليتك تركتني في جوف الأفعى..

فهتفت به: أخي.. صديقي..

وارتميت عليه معانقاً ومستغفراً، ملاطفاً ومسايراً، حتى لانت أساريره وعاد انقباضه الى انبساط وغضبه الى هدوء وترحه الى مرح.. و بعد طلب الصفح كانت كلمة الغفران..

جزيرة السر القاتل

وفي ليلة والقمر في المحاق، قال لي صديقي:

ـ تأهب للعودة.. فاني اعيش الحالة التي تقربنا من جزيرتنا ومدينتنا.. ولكن اياك ان تتفوه بكلمة واحدة فقد كانت كلماتك هي السبب في ما حلّ بنا..

فقلت له: انني فاهم طلبك، عارف بمواقع كلمك.. لن أنبس ببنت شفة كائناً ما كان المشهد الذي أرى والمنظر الذي اشاهد..

ثم كان التحليق العلوي وأنا مغمض الطرف، اسبّح بقلبي واستغفر الله في سري، حتى طوى الرجل الطائر جناحه على شاطىء الأمان..

ودرجت في اليوم التالي الى السوق، فتلقاني القوم واجمين ساهمين، دون ان يفاتحوني بكلمة عتاب أو يتوعدوني بعقاب.. ولم يبق من انسان يكلمني في هذه الجزيرة سوى صديقي الذي انتشلته من شدق الافعى القاتلة..

وسألت زوجتي الحل لهذه العقدة المستعصية فقالت لي:

ـ البدار.. البدار.. الرحيل.. الرحيل..

وقال لي صديقي: لا خلاص من غضب القوم إلا بالتواري عن انظارهم..

وطلبت اليه، فقام ببيع أملاكي عقاراً بعد عقار وغرضاً بعد غرض.. ولم يبق لي منها إلا القصر والجنينة اللذان لم يقدم على شرائهما أحد.. فسلّمت حجتهما لصديقي الذي انقذته فانقذني، والذي كان وحده واقفاً على الشاطىء يلوح لي بمنديل الوداع وأنا اغادر الجزيرة مع قرينتي ورفيقة حياتي..

ونظرت الى الوراء فاذا الجزيرة لا يستبين منها غير قنن جبالها وأعالي اشجارها، وأني أرسلت طرفي رأيت الماء والسماء ولا غير ذلك.. فملت الى قرينتي وهمست في أذنها: ما اسم جزيرتكم يا قرة العين؟..

فأجابتني بهمس هو نجوى الضمير خفوتاً وكتماناً:



- جزيرة السر القاتل..

ثم أغضت بطرفها تسبح في حلم عميق، فعدت أنظر اليها متأملا دقة تكوينها وروعة تعابير وجهها وقلت:

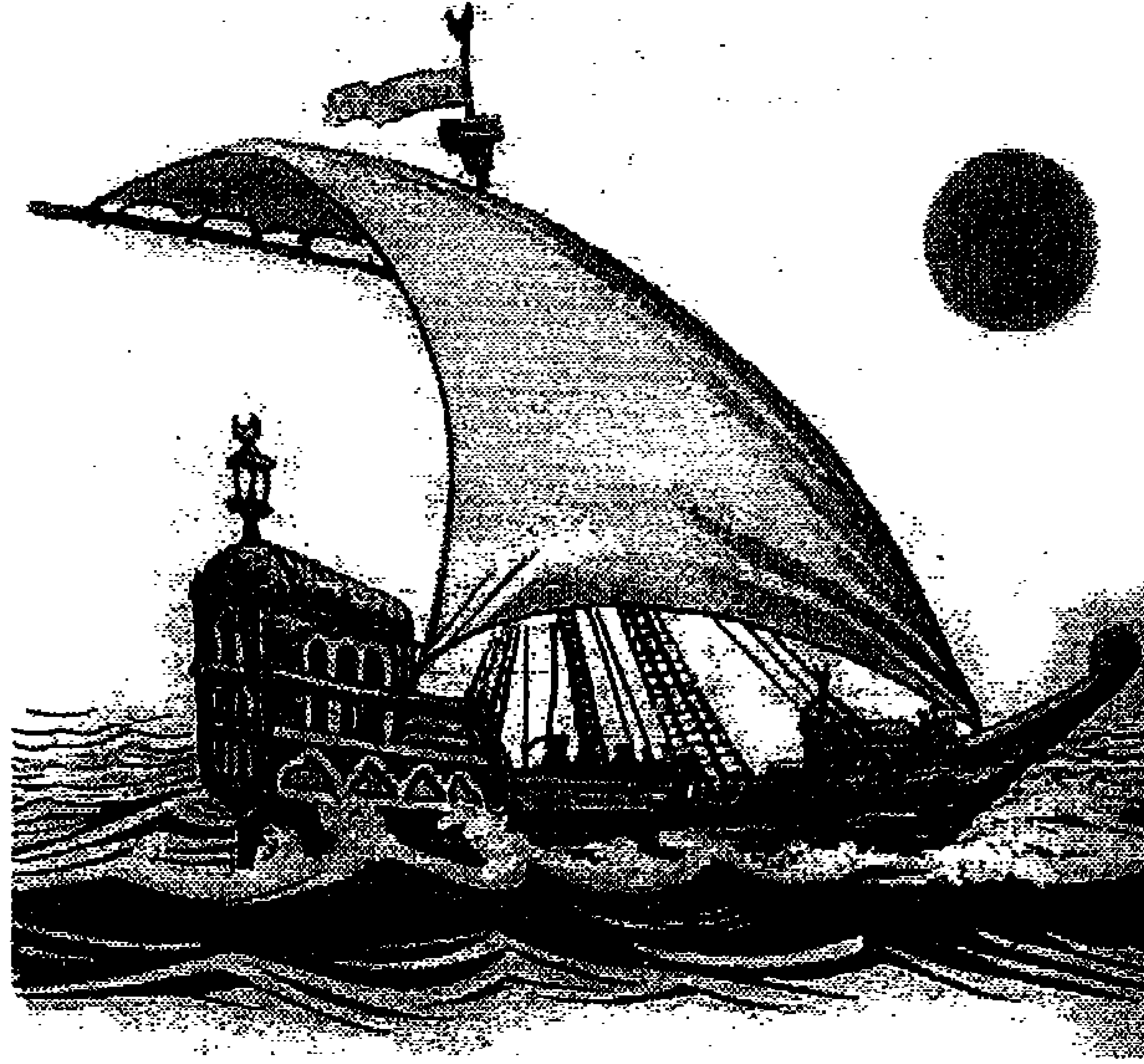
- صحيح.. صحيح.. ولكنني نسيت انها جزيرة السحر القاتل..

فابتسمت لي ابتسامة وادعة كما لو كانت الحمامة المطوقة وقد حلق فوقها باز فاتك.. فأخذت بيدها مصطحباً اياها الى مقدمة السفينة لتدفن حزنها العميق في هذا الخضم الذي ليس أوسع من صدره ولا ارحب من مداه، نستمع الى هدير البحر وغناء البحارة، مبتهجين لمرأى النوارس التي أبت إلا مرافقتنا في هذه الرحلة أجنحة ممدودة كأيدي الرجاء، واغرودة مسفوحة على شفة الطبيعة سحراً وعطراً وضياء..



وكم كان سروري إذ أنظر فأرى ذكاء مشرقة من قلب سفينتنا الجارية أملا دافئاً يغمر قلبي، وأتطلع الى البدر فأراه بجانبي يتفجر ضياؤه من جوانحي، فأشكر الله على نعمة الحب الذي سربلني بضافي حلته التي هي من روح الكون أجزل عطاء وأسمى هناء..

ولم تزل السفينة تمخر بنا متهادية على صفحة الماء من جزيرة الى جزيرة ومن مرفأ الى شاطىء، وفي كل وقفة من تلك الوقفات عظة بالغة وعبرة مفيدة وخبرة وكسب.. حتى رسونا اخيرا في ميناء العرب، البصرة الزاهرة، ومنها انتقلت الى بغداد أنعم بالسعادة والهناءة ورخاء العيش الذي هو ثمرة جهدي ومشقاتي المتلاحقة، واعتقد يا أخي الكريم، سميّي وشقيق روحي سندباد، ان من كدح مثلما كدحت، وعانى من المخاطر ما عانيت، وكابد من المشاق ما كابدت، يحق له ان ينعم بالراحة ويرفل بحلل السعادة..



الدنيا كفاح

وصمت السندباد قليلا ثم رفع رأسه مخاطباً ضيوفه وفي مقدمتهم سميّه وصفيّه:

إذا كان لي من كلمة أوجهها اليك أيها الأخ الكريم والأصدقاء الأوفياء، هي ان تعيشوا وتعملوا بمحتوى أمثالنا السائرة: الدنيا كفاح، والصقر لا يصيد بوكره، وان عبالة عنق الليث فلشدة ما يسعى، وان الكلب الساعي خير من الأسد الرابض.. فخض لجج الحياة مؤمناً بإن الخير لا بد وان يظهر على الشر، وسر قدماً حاملا بيمناك مصباح الأمل الذي يوسّع أفق الحياة ويضفي عليها معنى جميلا، تعش عمرك عمرين: واقع الكفاح ومثل الرجاء والنجاح.. اعمل متفائلا، واسع غير متشائم، واستقبل يومك بنظرة الامتنان، وودعه بابتسامة الشكر، تكن المثل الأعلى لقريبك، وتغدو أقرب الى ربك..

وهنا تهلل وجه سندباد الحمّال، وقام يلثم يد المنعم الكريم وهو يقول له:

- وهل لسيدي من رحلة ثامنة؟..

فابتسم الرجل المغامر ابتسامة ناعمة وهو يقول:

- لا.. ولكنني كنت السندباد البحري، فكن أنت السندباد البري، وأنا مستعد ان أمدّك بكل أسباب الفلاح والنجاح..

فقال السندباد البري:

- ان نصيحتك يا سيدي أثمن من كل ما قدمت لي من عطايا وهبات، لأنك خلقتني خلقاً جديداً فأصبحت غير ما كنت..

وأشار السندباد البحري اشارة الموافقة على قول سميّه، ثم اشارة اشارة ثانية صدحت على اثرها جوانب القصر بأغنية من أغاني السعادة والهناء..



الفهرس

حكايات الكتاب الثالث

الرجل الذي قُتل أربع مرات

رجل في قصر الحريم

الصديق القاتل

المزين الثرثار

الجارية أنيس الجليس

